ظاهرة المشيب فى الشعر العربى

دكتورة / سهام راشد عثمان *

قضية المشيب والشباب حيرت كثيرا من الشعراء والمفكرين ، فأخذتهم إلى الاستسلام أو الجدل ، والمشكلة فى الإنسان وتصدعه من الداخل فقليل منهم من استطاع استبطان ذاته واستكناه نفسه وارتياد مغاورها المتشعبة" (١) .

وقد شغل البكاء على الشباب حيزا كبيرا فى آداب الأمم كلها ، ولاغرو فهو موضوع انسانى عام ، يتصل بالطبيعة البشرية المتشبثة بأهداب الحياة ، والتى ترى فى تولى الشباب ايذانا بمغيب الشمس .

وقد يتوقف اعتداد الشخص بنفسه واقباله على الحياة أول ما يتوقف على مظهره ، ويتزعزع أيما تزعزع بمقدار ظهور علامات السن مسطرة فوق ذلك السطح الواشى .

وفى هذا العصر الذى شاع فيه الكلام عن العقد النفسية والشعور بالنقص نجد لحالة مظهرنا أثرا فعالا فى تلك الحالة النفسية ، فما أكثر العقد المزعجة التى تتكون لدى شخص يؤذيه مظهره ، ويفقده القدرة على غزو القلوب" وليس هناك موقف أحرج من المشيب حين تشتعل به الرأس" (٢).

---

* مدرس بقسم اللغة العربية بكلية الآداب بسوهاج

قال علقمة بن عبدة :

فـان تسـألونى بالنسـاء فـأننى ... بصـير بـأدواء النسـاء طبيـب
إذا شـاب رأس المرء أو قـل مالـه ... فليـس لـه مـن ودهـن نصيـب
يّردن ثـراء المـال حيث علمنـه ... وشرخ الشباب عندهن عجيب(٣)

لذا ضجر شعراؤنا وأدباؤنا وتبرموا لوجوده ، وذموا الحيـاة والزمـان ، وظلـوا علـى تشاكس دائم معهما ، إذ ربطوا بين ظهور المشيب والموت ، ولهم فى ذلـك أقـوال كثـيرة : "قال بعضهم : الشيب نذير الآخرة . وقال قيس ابن عاصم : "الشيب حطام المنيـة ، وقـال آخر : الشيب توأم الموت، وقال الحكيم : شيب الشعر موت الشـعر ، ومـوت الشـعر علـة موت البشر" . (٤)

وقال الوراق :

لا تطلبـن أثـرا بعـين ... فالشـيب احـدى الميتتـين
أبـدى مقابـح كل عـين ... ومحـاسن كـل زيـن (٥)

فالشيب كما ترى مذموم مكروه ، والمتاعب النفسية الناجمة عن ظهوره تتخذ مظاهر شتى من قلق وجزع وما أشد الإنسان الذى يبيت فريسة هذه الاحساسات التى تنتهـى فـى آخر المطاف بانهاك الروح والجسد .

قال هدبة بن خشرم العذرى :

طـربت وأنـت أحيانـا طـروب ... وكيف وقـد تعـلاك المشيب (٦)

وقال المهلبى الوزير :

رق الزمـان لفـاقتى ... ورثـى لطـول تحرقـى
فلأغفـرن لـه الكثـير ... مـن الذنـوب السـبق
الا جنايتـه الـتى ... فعـل المشيـب بمفرقـى (٧)

ويقول محمود الوراق :

أليس عجيبا بأن الفتى يصاب ببعض الذى فى يديه
ويسلبه الشيب شرخ الشباب فليس يعزيه خلق عليه (٨)

ومن الجدير بالذكر أن الشباب لايعرف ما فيه من نعمة حتى يقارن بغيره بعد أن تدب الشيخوخة ، ويبلغ مرحلة من الحياة لاحيلة له فى نكوصه عنها وارتداده منها اى حال الشيبة الأول .

فالشباب دائب على استهلاك ذاته واستنفاد موارده الفطرية ، استهلاكا بطيئا فى البداية ، ثم بسرعة متزايدة فيما بعد مرحلة الشباب ، وعنئذ نفهم حنين الشيوخ إلى عهد الصبا ، ونفهم تغنى الشعراء بطيش الشباب ، ونزقه وغروره وجهله ، فيشتهى ما كان يتبرم به بالأمس .

يقول امرؤ القيس :

فان يك شيب قد علانى وفاتنى شبابى وأضحى باطل القول قد صحا
وراجعت حلمى واكتهلت وثاب لى فؤادى وذذت النفس عن نبع الهوى
فيا رب يوم ناعب قد لهوته برنجة الأوراك خمصانة الحشا (٩)

وقال دريد بن الصمة :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل ابعد (١٠)

ففى سن الشباب والقوة والفتوة يبلغ المرء مقاصده ويحقق آماله ، فإذا جاء الشيب حطم الشباب والقوة والأمل جميعا ، وفى القرآن الكريم : (ا لله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبا) (١١) .

ومن هنا كان بكاء الشيوخ على الشباب المولى ، وما بكاؤهم إلا أنهم لم يستطيعوا أن يغترفوا من نعيمه ما شاءوا ، ولم ينعموا بفراديس الحب كما يجب ، فدبوا إلى الشيخوخة وهم صفر اليدين من نعيمه ، لذا تمنوا لو يعود ما ذهبت به الأيام من مرح الصبا ولهو

الشباب ، وتمنوا لو تأخر المشيب لأن سواد الشعر من مظاهر الحداثة ، والصبا وأمارات الفتوة والشباب غالباً ، فإذا ذهب ذهب معه الشباب ومرحه ولهوه وملابساته ودواعيه ، وحل محله بياض الشيب وهموم الهرم ومتاعب الشيخوخة :

ليت المشيب تأخـرت أيامـه حتى أفـوز من الشيبـة بالمنى (١٢)

يقول البارودى :

ردوا على الصبا من عصرى الخالى وهل يعود سواد اللمة البالى (١٣)

ولكن هيهات ، فسواد اللمة البالى لن يتجدد ، ولن يعود إذ :

كمـا لـو أردنـا أن نحيـل شـبابنا قشـينا ، ولم يأن المشـيب ، تعـذرا
كـذلك تعيينـا احالـة شيبنـا شبابـا إذا ثـوب الشباب تحسرا

يقول ابن الرومى أيضاً :

أبـين ضلـوعى جمـرة تتوقـد على ما مضى أم حسرة تتجدد(١٤)

فالحسرة هنا على نعيم ولى لم يستطع القبض عليه أيام الشباب ، ونعتقد أن هذه النغمة القلقة اليائسة أثر من آثار الطور الجنسى الأخير الذى عاجله قبل أوانه ، ومن ثم وقع بين رحى الرغائب الحية والقدرة الميتة . وقد أدركت هذه الأزمة ابن الرومى فجنحت به إلى ذلك الوجوم الملتهب من الألم لفقد الشباب وإلى هذا الحزن المتجدد الذى لايبلى بل يزيد مع تجدد الزمن ، ومع تجدد الحرمان .

فقد يفجأ المشيب المرء وهو لم يتزود له بالقدرة النفسية المتزنة على مجابهته ، فيتزعزع ويفقد القدرة على التوازن النفسى ، فتبدو منه بعض البدوات والصغائر ، على حد قول العقاد (١٥) .

ومن هنا كان النضال ضد الشيخوخة ولاسيما الشيخوخة المبكرة – كما يقول "ميتا لينكوف" شأنه فى ذلك شأن النضال ضد أى مرض آخر ، يلزم له درس المؤثرات النفسية لزوم الأدوية والعقاقير نفسها" (١٦)

ومن ثم لاتعتورهم حالات نفسية سوداوية قاتمة ، ولانجد مثل هذه الحساسية المفرطة التى نجدها مثلا عند الأمير العباسى عبد الله بن المعتز حيث يقول :

مات الهوى منى وضاع شبابى وقضيت من لذاته آرابى
وإذا أردت تصابيا فى مجلس فالشيب يضحك بى مع الأصحاب(١٧)

وغير عجيب إذن "أن يكثر دعاة التشاؤم فى أجمل أدوار العمر وأحفلها بالمسرات ، وغير عجيب ان ترى الناس يميلون إلى الرضا والأنس بالحياة كلما طالت عشرتهم لها وريضت نفوسهم لمكارهها وطياتها ، هذه سنة كثير ممن صحبوا هذه الشيخة الفتية ونزلوا على حكمها تارة ، وأنزلوها على حكمهم تارة أخرى" (١٨) .

والمرء يأمل والحياة شهية والشيب أوقر والشبيبة أنزق
ولقد بكيت على الشباب ولمتى مسودة ولماء وجهى رونق
حذرا عليه قبل يوم فراقه حتى لكدت بماء جفنى أشرق (١٩)

ونحس بضرب من التغير فى النفس الشاعرة ، وبتذبذب واضطراب تجاه المشيب ، فالشعراء يتجاذبهم قطبان أمل ويأس ورجاء وخيبة وبين قطبى الأمل واليأس تنهمر الدموع، وتئن القلوب وتنفث الصدور آهات حارة ، فيكون ذلك خيراً وبركة على الأدب إذ تفرز الأحزان الأفكار التأملية المتفلسفة ، أو الأفكار السوداوية المتشائمة ، أو الرضى والاستسلام . يقول المتنبى :

خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبى موجع القلب باكيا(٢٠)

ويقول ابن خفاجة :

فصرت وقد أعطيت شيبى مقادتى أرى صبوتى أحلى وشيبى أحلما
وكل امرئ طاشت به غرة الصبا إذا ما تحلى بالمشيب تحلما (٢١)

ويقول ابن المعتز :

جاء المشيب فما تعست به ومضى الشباب فما بكيت عليه (٢٢)

وهكذا نرى اضطراب الشعراء فى نظرتهم للمشيب ، ففى حين أنهم يرون أن الحياة الحقة لاتكون الا مع الصحة والشباب والقوة والفتوة ، نراهم من جانب آخر لايرون فى الشباب الا كل نزق وطيش وجهل ، أما المشيب فهو سمة الوقار والاتزان والحكمة .

يقول أبو العلاء المعرى :

إذا طلع الشيب الملم فحيه ولا ترض للعين الشباب المزورا (٢٣)

المشيب وأدوار العمر :

ونرى اعترافات شعرائنا بما يجول فى خواطرهم من أحاسيس ومشاعر يغلب على الناس فى أغلب الأحيان إنكارها وإخفاؤها ، لاعتبارها أمراً محرجاً يجب إخفاؤه ، إذ هو إحساس ثقيل يعتور الذات ، ولعل فى الإفضاء به والتصريح شئ من التطهير والتنفيس ، ويختلف الشعراء فيما بينهم باختلاف السن لقبول التعاليم وإدراك كنهها .

هذا وقد ضجت دواوين الشعراء بأشعار وصفوا فيها أجواءهم النفسية وحالتهم الفكرية وفلسفتهم بين الشباب والكهولة ، وتجاربهم الشخصية بين أطوار سنى أعمارهم المختلفة ، ونظرتهم الجديدة إلى الحياة .

فقد تبكر الشيخوخة بالإنسان ابان شبابه ويصبح شيخا قبل الأوان ، ويتقدم به السن ، وليس فيه بقية من شباب ، ذلك أن الشباب "المندفع فى شرته وعنفوانه يبعثر قواه عاجلاً ، ويستنفذ رأس ماله سريعاً ، فيخطو إلى الشيخوخة خطوات واسعة كأنه يسير إليها بكل قوة الصبا والفتوة ، إن الشباب الذى يحس الشيخوخة قبل أوانها يتأنى ويتئد ، فلا يصل إلى الشيخوخة قبل الأوان" (٢٤) .

ويرى العلماء أن للهرمونات تأثيراً قوياً على الأجسام ، وأن الغدد هى المسئول الأول الذى يتحكم فى مصير الفرد منّا ويحدد مصيره من التعاسة والشقاء ، أو السعادة والهناء ، إذ "هى المسئولة عن البريق فى العينين ، وعن الابتسامة الحلوة على الشفتين ، فبفعلها الساحر يتم نقاء النفس ، وصفاء الذهن ، ووضوح الأفكار ، واليها يرجع قوة

البدن ، وجمال الصوت ، وتوازن العواطف ، كما تتحكم فى نضوج التفكير ، وذلك لأنها تقف فى هذا الميدان حداً فاصلاً بين العقل والغباء أو بين البلاهة والذكاء" (٢٥) .

كما أن عدم انتظام "الغدة فوق الكلية يؤدى إلى الشيب المبكر للشعر ، ويأتى اضطرابها نتيجة حتمية للتغذية الخاطئة أو للانفعالات الشديدة التى تعترض مجرى حياتنا"(٢٦) .

ومن هنا كان المشيب من الهموم التى تصيب النفس بالقتامة ، خاصة تلك النفوس التى تحمل بين طياتها هموماً أخرى ، فيجد الشيب عندهم استعداداً فطرياً لدى النفس لإثارة الأحزان ، والأنين والنحيب ، فهموم النفس – كما يقول علماء النفس – ثلاثة : مادية وعاطفية واجتماعية ، وهى أكثر النفوس جزعاً من المشيب وبكاء على الشباب المولى، أما المادية فترجع إلى عاهة تصيب الإنسان إما من أصل المولد كالذى يولد شديد القصر فيرى نفسه بالنسبة إلى غيره من الناس شائه القوام ، أو يكون ذا عضو من أعضاء البدن غير متناسب .

والعلة الثانية هى العاطفة ، تلك التى تمس القلوب ، وهى تلك التى عناها الشاعر ، وغناها المغنى، ونقصد هجر الحبيب وانقطاع الصداقة .

والعلة الثالثة هى الاجتماعية التى تمس المنزلة ، ومنها الخلقية التى تسيئ إلى سمعة صاحبها ، وقد تخدش المنزلة لأمور اعتبارية هى جملة الأمور التى لاتخرج عنها الهموم (٢٧).

والنتيجة التى نهدف إلى تقريرها هى : "أن كل ما يحدث من التأثير الخارجى فى حياة إنسان لايغير نفسيته فحسب ، بل يؤثر عن طريق الحياة النفسية تأثيراً كبيراً فى حياته الكيميائية الحيوية ، وفى نشاط خلاياه وأعضائه" (٢٨) .

ولو حاولنا تطبيق هذه النظريات النفسية على أكثر الشعراء إحساساً بوطأة الشيب، وتشاؤماً سوداوياً من الحياة لوجدنا صدق ذلك ، فمثلاً : ابن الرومى ، والمتنبى وأبو العلاء المعرى ذكروا الشيب كثيراً فى دواينهم وبصورة لافتة ، ولو حاولنا تطبيق النظريات السابقة عليهم لوجدنا أن هؤلاء الشعراء الثلاثة مفرطوا السوداوية ، إذ وجدوا فى عصور

متقاربة ومضطربة ، ففى القرن الثالث الهجرى اختلت الحياة العباسية وضعفت وعمت الفوضى ، وخير من صور ذلك هو ابن الرومى ، وساد شعره العويل والصراخ والتعاسة والشقاء ، وزاد الأمر سوءا فى القرن الرابع الهجرى حيث انتشرت الفتن ، وساءت أحوال الناس ، وعم الفساد فى كل مكان وكان من الطبيعى أن يترك أثره على الشعر الذى زادت فيه الكآبة والقلق وأصبح يسوده الحيرة من أمرهم ولا يدرون أين المفر ؟ وخير من صور ذلك المتنبى الذى ظل يردد هذه الأحاسيس حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ، فكان كل ما فى الكون عنده موشحاً بالسواد ، كما تناول أبو العلاء المعرى هذه الحوال فى شعره وزادها حزناً وألماً حتى أصبح التشاؤم عنده عقيدة وسلوكاً ، لذلك كانت الظروف الاجتماعية والسياسية هى العوامل الفعالة المؤثرة فى شعرهم (٢٩) . هذا فضلا عن "أن المتنبى كان مطعوناً فى نسبه مجبوراً على إخفاء انتمائه للأصل العلوى" (٣٠) .

والمعرى "اعتل فى سنته الرابعة علة الجدرى ، فما أبل منها إلا وقد شوهت وجهه بندوب لا برء منها وذهبت ببصره ، مسدلة بينه وبين الدنيا حجاباً كثيفاً حالك السواد ، فما انجاب عنه حتى آخر العمر" (٣١) .

وابن الرومى داهمه الشيب والصلع فى سن غير معتادة بين أفراد الناس وأدركته الشيخوخة الباكرة فاعتل جسمه ، وضعف نظره وسمعه ، ولم يكن قط قوى البنية فى شباب ولا شيخوخة ، ولكنه كان يحس القوة اليسيرة فى الحين بعد الحين ، كما يحس غيره العلة والسقام ، فكان إذا مشى اختلج فى مشيته ، ولاح للناظر كأنه يدور على نفسه أو يغربل ، لاختلاج أعصابه واضطراب أعضائه" (٣٢) ، كما كان متطيراً "لا يدع التطير والتفاؤل فى جميع حركاته وتصرفه" (٣٣) .

ومن هنا نفهم جزعهم من المشيب وبكاءهم على الشباب المولّى نتيجة لهذه المؤثرات الخارجية والتى كان لها أكبر الأثر على حياتهم الكيميائية والنفسية ، وبالتالى فابن الرومى أساء اليه الناس فى عصره ، ورموه بالتخنث .

فيجد المشيب استعداداً فطرياً لدى نفسه ، لإثارة الأحزان والنحيب ، فيبكى استشراء الشيب فى لحيته والتى كانت عوضاً عن الصلع والشيب اللذين داهماه مبكراً ، فيئن :

رأيت جليسا لايزال يروعه ... بياض القذى فى لحيتى فيميطه
فكيف عما قليل إذا رأى ... قذى الشيب قد عفى عليها سقيطه (٣٤)

فالجزع من المشيب على هذه الصورة إنما هو نتيجة حتمية لمزاجه المعتل والناجم بدوره عن اختلال أعصابه واضطراب أعضائه ، فليس من شك فى أن للجسم تأثيراً شديداً على الروح حتى فى صورته ، فالصور المقبولة تبعث فى أصحابها روح الثقة بالنفس ، وذلك مظهر من مظاهر الاتساق بين عافية البدن وشباب الروح" (٣٥) .

لذلك يقول ابن الرومى فى أسى بالغ :

كفاك من ذلتى للشيب حين أتى ... أنى توليت نتفا لحيتى بيدى (٣٦)

وحفاظاً على هذا المظهر العام ، يحاول إخفاء شيبه بخضابه ، ولكن هيهات فالشيب يستشرى ، ولن يفلح إخفاؤه بخضاب أو غيره :

رأيت خضاب المرء عند مشيبه ... حدادا على شرخ الشبيبة يلبس
وإلا فما يغرى امرءاً بخضابه ... أتطمع أن يخفى شباب مدلس؟
وكيف بأن يخفى المشيب لخاضب ... وكل ثلاث صبحه يتنفس
وهبه يوارى شيبه ، أين مساؤه ... وأين أديم للشبيبة أملس (٣٧)؟

لذا كثيراً ما يوضح لنا أن شيبه لم يكن عن شيخوخته ، ويرى أن اخفاءه ليس عيباً.

شاب رأسى ولات حين مشيب ... وعجيب الزمان غير عجيب
قد يشيب الفتى وليس عجيبا ... أن يرى النور فى القضيب الرطيب(٣٨)

ويذكر أن الشيخوخة قد بادرته وعمره إحدى وعشرين سنة ، لذا ينحو على الزمن باللائمة ، ويرميه بكل ظلم وجور :

فظلـم الليـالى أنهـن أشبننـى لعشريـن يحدوهن حول مجرم (٣٩).

ويقرر فى موضع آخر أنه شاب وعمره خمس وعشرون عاماً :

أيهـا الشيب لم حللـت بـرأسى إنما لى عشـر وعشـر وبنج (٤٠)

وفى موضع آخر يذكر أنه شاب ولم يبلغ الثلاثين من عمره :

وأنـى تفـرع رأسـى المشيـب ولم أتفـرع ثلاثين عامـاً (٤١)

ولعل هذا الشيب المبكر أفزع ابـن الرومى وأصابـه بشئ غـير يسـير مـن الـتزعزع النفسى ، إذ من أندر الندرة أن يشيب امرؤ فى الحادية والعشرين كما حدث له . ومن هنـا نفهم كثرة حديثه عن الشيب مما يدل على أنه يسبب له أزمـة نفسـية ملازمـة ، فـنراه كمـا سبق يبدأ مطولته فى يحيى بن على المنجم يذكر ما حل به من المشيب فى ريعان شبابه ، وإن كنا نراه يدفع ارتباط الشيب بالتدهور ، ولايرى تناقضاً بينه وبين رونق الشباب .

ومن المسلم به أن الشخص الذى يشعر بأنه شاب ، والذى يدل مظهره على أنـه مـا يزال فى مرحلة الشباب يكون من السـهل عليـه أن يحتفـظ بثقتـه بنفسـه وبشـباب وجدانـه ونفسيته .

وان كنا نرى أحياناً رجالاً فحولاً ونساء مليحات ، وقد صاروا إلى الشـيخوخة بـين طرفة عين وانتباهتها تحت تأثير ضربة قاصمة أو ألم نفسى أو ذهنى عميق" (٤٢) .

مثل هذه الأزمة النفسية لازمت أكثر الشعراء الذيـن بـاكرهم الشـيب والشـيخوخة فعبروا عنها بأسى بالغ ، كما نرى ذلك عند البارودى الذى باكره الشيب فـى سـن مبكـرة فقال :

محا البين ما أبقت عيون المها منى فشبت ولم أمض اللبانة من سنى (٤٣)

ويقول من قصيدة أخرى : إن الاحتراس والحيطـة والوقايـة لاتدفـع حـوادث الأيـام ولاتصد خطوب الزمان ، وأنه كان قبل أن يلـوح الشـيب فـى رأسـه فينـان الشـعر أثيثـه ،

عظيم القوة ، كثير الإقدام ، حتى انه كان مع جهل الشباب يرى أن شرته وإقدامه قد جاوز الحد فيعمل على كبحها، يقول :

نزعت عن الصبا ، وعصيت نفسى ودافعت الغواية بالتأسى
ومن يك جاوز العشرين ترى وأردفها بأربعة وخمس
فقد سفرت لعينيه الليالى وبان له الهدى من بعد لبس
وكنت وكان فينانا أثيثا أنازع شرتى ، وأذود بأسى
فعدت وقد ذوى من بعد لين أدارى صبوتى ، وأسر يأسى (٤٤)

ويبدو أن شباب الجسم لايضمن بحال من الأحوال شباب العقل ، وأن شباب العقل ليس معناه بحال من الأحوال شباب الجسم ، فالأمران كما يبدو لايشترط وجود اتصال بينهما ، فالإحساس المبكر بالشيخوخة باكر العقاد ، فلم يله كغيره من الشبان فى مثل سنه، ولم يتماد فى طلب المتعة والسرور ، إلا أننا مع ذلك نسمعه يقول فى قصيدته "الشيب الباكر" :

لو كنت تحسب أيامى لما خطرت يداك يا شيب فى مسودة اللمم
دون الثلاثين تعرونى وما انصرفت إلا كما تنقضى الأعوام فى الحلم
قل لابن تسعين لاتحزن فذا رجل دون الثلاثين قد ساواك فى الهرم(٤٥)

ثم يعقب العقاد قائلاً : "وهذا هو التحفظ الذى لم يفارقنى فترة فى حياتى هو القصد الطبيعى الذى حفظ لى ثروة الفتوة ، فجاوزت الستين وأنا أعمل عملى فى العشرين وفى الثلاثين وفى الأربعين وقد أزيد عليه ، وهذا هو المقياس الصحيح لدوام قوة الشباب ، ولكنه مقياس واحد من عدة مقاييس ، ويكثر ترددها فى مثل هذا المقام" (٤٦) .

فعلى قدر ما كان يحس بالشيخوخة فى شبابه ، كان شاباً بل طفلاً فى شيخوخته ، وانعكست طفولته هذه على تجاربه الشعرية ، فالاختلاف فى الزمن لم يغير من معالم نفس العقاد أو عناصرها بتعبير أدق ، ولم يزد عليها أو ينقص منها فى أى مرحلة من مراحل

عمره، فطبائعه لم تتغير باختلاف الزمن ، ومن ثم لم يكن فى حياته نقطة تحول بين عهدين أو عمرين ، ولم يكن هناك اختلاف فى جوهر الموضوع ومادة القدرة والشعور" (٤٧) .

فمن الواضح أن هناك من يتمتعون بشباب جسمى ظاهر ولكنهم فى الوقت نفسه ينحدرون باستمرار إلى مهاوى الشيخوخة العقلية ، أما التمتع بشباب عقلى متوقد فى الوقت الذى تخمد فيه الطاقة البدنية ، فأمر مشاهد فى حالات الأشخاص العباقرة ، ولايوقظ نشاط العقل فى هذه الحالة الا انتفاء سنة الحياة فى ذلك الهيكل نهائيا ، وما يقال عن العقل يقال عن الروح وشبابها وحبورها وعن الشعر وعدم ارتباط مشيبه بالسن فى كثيرمن الأحايين .

يقول المعرى :

إرجع إلى السن فانظر ما تقادمها فاحكم عليه ولا تحكم على الشعر
فكم ثلاثين حولا شيبت ومضت ستون والشيب فيها غير مستعر(٤٨)

ويرى المتنى أنه صاحب نفس لايؤثر فيها مرور الأيام ، ولا تستطيع أحداث الدهر النيل منها ، فمهما يتقدم به العمر فهمته الفتية فى شباب دائم :

وفى الجسم نفس لاتشيب بشيبه ولو أن ما فى الوجه منه حراب
يغير منى الدهر ما شاء غيرها وأبلغ أقصى العمر وهى كعاب(٤٩)

فحوادث الدهر ونوازله لا تؤثر فيه ولا توهن من عزيمته وهمته ، فالدهر عاجز أمام هذه النفس الفتية ، ويفخر بهذه الهمة الرفيعة والعزم القوى على الرغم من سطوة الحوادث وصولة الزمان، لذا نراه ينفى القبح عن المشيب نفيا للوهن والضعف ، يقول :

وما خضب الناس البياض لأنه قبيح ولكن أحسن الشيب فاحمه(٥٠)

ولهذا لا نستطيع أن نغفل أن القوة النفسية والايمان بالمعنى الواسع لكلمة الإيمان ، يمدان القوى الجسمية والحيوية بسند عظيم .

يقول ابن دريد :

ما أنعم العيشة لو أن الفتى يقبل ومنه موته أسنى الرشا
أو لو تحلى بالشباب عمره لم يستلبه الشيب هاتيك الحلى (٥١)

وهكذا نرى أن وهن الجسم لا يعنى مطلقاً وهن العقل والروح والشعر "وأن العبقرية قد توجد فى ضعاف الأجسام ، وفى سن الشيخوخة ، فلا تزداد شعلتها على المرض والشكوى إلا اتقاداً ، وإن كان يرى البعض أن وهن العقل وملكاته من شأنه أن يسبب وهن الصحة الجسمية واختلال العمليات الحيوية" (٥٢) .

ومن اللافت للنظر أن الإحساس بالعمر نزعة نفسية ، تختلف حدة وخفوتاً من شخص لآخر حسب الاستعداد النفسى لذلك ، فقد يكون الرجل شيخا ولكن قلبه لا يزال شاباً ، يشعر بشعور الشباب ، فالزمن لا يغير عناصر النفس الأصيلة ولا يزيد عليها ولا ينقص منها .. فالمشاعر تظل كما هى إلا أنها فى فترة الشباب تكون فى حالة الفوران ، أما فى الشيخوخة فهى تجنح إلى الاستقرار" .

"ولكل من هاتين الحالتين فضله ورجحانه ، ففى الغليان قوة ، وفى الوضوح معرفة، والمعرفة مع ذلك قوة للعارفين" (٥٣) .

ففى الشباب والقوة يبلغ المرء مقاصده ويحقق آماله ويفوز فيها بما يرجوه ويتمناه :

فاخلع عذارك ، واغتنم زمن الصبا قبل المشيب ، فكل شئ فانى (٥٤)

وقال أحد الشعراء :

وقائلة خل الصبا لرجاله فان الصبا بعد المشيب جنون
فقلت لها : ان الصبابة راحتى ألذ الكرى عند الصباح يكون(٥٥)

ويرى المعرى ضرورة أن يقتصد الشباب وألا يبعثر قواه سدى ، يقول :

وقد لاح شيب فى الذرا فصحوتهم وصح لكم أن الشباب من السكر
فلا تعسوا ا الله الذى لو هديتهم إلى رشدكم مازال منكم على ذكر (٥٦)

ويقـول :

أأذهـب فيكـم أيـام شـيبى كمـا ذهبـت أيـام الشـباب
معـاذ الله قـد ودعـت جهـلى فحسبى من تميـم والربـاب(٥٧)

واللافت للنظر أن المعرى من أكثر الشعراء ذكرا لأطوار العمـر المختلفـة ، ولاغـرو فالمعرى يبدو فى ذلك متأثراً بإخوان الصفـاء الذين يؤثـرون الشـباب ، لاعتقـادهم أن الله سبحانه وتعـالى مـابعث نبياً إلا وهـو شـاب ، ولا أعطى لعبـد حكمـة الا وهـو شـاب ، ويستشهدون فى ذلك بقوله سبحانه وتعالى : (إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) (٥٨).

ويذهبون إلى القول بأن مـا مـن نبى بعثـه الله إلا وأول مـن كذبـه قومـه المتعـاطون الفلسفة والنظر والجدل (٥٩) .

ومن هنا نفهم بكاءه الحار على الشباب وكثرة ذكر المشيب فـى شـعره ، كمـا نـراه متأثراً بهم أيضاً فى درجات السن والمعرفة ، فلكل سن درجتها ومرتبتها وفقا للعمـر ومبلـغ التمكن من العلوم والمعارف وسمو الروح (٦٠) .

إذ يرى المعرى مثلا أن العواطف تجنح إلى الاستقرار والنضـوج فـى سـن الأربعـين ، كما يميل الشخص إلى السأم والعزوف عن الدنيا ، ويكون أكثر خبرة وتجربة ، يقول :

تنسكت بعد الأربعـين ضـرورةً ولم يبـق إلا أن يقـوم الصـوارح
فكيف تـرجى أن تثاب وإنمـا يرى الناس فضل النسك والمرء شارح(٦١)

ويعيب على من تخطى سن الأربعين الزواج بفتاة صغيرة فانـه لايجنـى مـن ورائهـا الا التعب والشقاء وتكون عليه عبئا ثقيلا وعناء جما ، ويتوجه بالنصح إلى الزواج بمـن هـى فـى مثل سنه :

إذا انقضـى الأربعـون فـلا تـرد سوى امرأة فـى الأربعـين لهـا قسـم
فإن الـذى وفى الثلاثـين وارتقى عليهن عشـرا للفناء بـه وسـم (٦٢)

وينصح بملازمة الكتاب ، فهو خير جليس من الناس الذين يتفشى فيهم الكذب والنفاق والرياء :

وركبت منها أربعين مطيةً ... لم تخل من عنت وسوء نفار
حادث كتابك فهو آمن جانباً ... من أهل تسبيد وأهل وقار (٦٣)

ويتجه باللائمة على ذلك الذى لم ينظر فيما تصلح به معيشة الحياة الدنيا ، وما تنال به النجاة والفوز فى الآخرة ، اعتقاداً منه بأن ما يأتيه من شرور ما هو إلا أمر جبرى اضطرارى :

كيف احتيالك والقضاء مدبر ... تجنى الأذى وتقول أنك مجبر
أرواحنا معنا وليس لنا بها ... علم فكيف إذا حوتها الأقبر
ومتى سرى عن أربعين خليتها ... فالشخص يصغر والحوادث تكبر(٦٤)

فالمرء إذا وفى الأربعين جنح إلى الاستقرار والنضوج ، قال تعالى :

(حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه) (٦٥) .

قال الاقيشر :

إذا المرء وفى الأربعين ولم يكن ... له دون ما يأتى حياء ولا ستر
فدعه ولا تنفس عليه الذى ارتأى ... وإن جر أسباب الحياة له الدهر (٦٦)

هذا ، وتعتبر "الخمسون" أعلى الذروة فى درجات العمر ، ومن كلمات فيكتور هيجو فى ذلك : "إن الخمسين شيخوخة الشباب ، ولكنها شباب الشيخوخة ، فذو الخمسين شاب بين الذين نيفوا على السبعين أو الثمانين ، يشعر بهذا كما يشعرون به وان لم يقصدوه ويتعمدوه" (٦٧) .

فالمسألة اعتبارية إضافية فى جميع الأعمار والعلاقات ، فما يصدق على الخمسين عند فريق من الناس قد يصدق على غيرهم وعلى الستين عند آخرين ، فإنما الكلام فى هذه

الأمور على الإجمال ، ولا يتأتى أن يساق الكلام فيها على التفصيل لكل فرد من الناس على حدة" (٦٨) .

وقد تمثل الشعراء أدوار العمر الإنسانى على كل درجة من درجاته مع استحضار الفوارق النسبية بين إنسان وإنسان ، ويتفاءل أبو العلاء المعرى بسن الخمسين فيقول :

لقد غاب عن فوديك خمسين حجه — فأهلا به لما دنا وتسورا
فمن عثرات المرء فى الرأى أنه — إذا جرى ذكر الخضاب تشورا(٦٩)

والخمسين هى ذروة النضج والاكتمال والنبوغ ، يقول أحد الشعراء :

ما من أتت من دون مولده — خمسون بالمعذور بالجهل
فإذا مضت خمسون من رجل — ترك الصبا ومشى على رسل (٧٠)

وفى الخمسين يكون التوقد الفكرى والإبداع بين أولئك الذين يعملون بالفكر والمذاهب الفكرية والفلسفية . فالفلسفة حكمة والحكمة مقرونة فى الأذهان بالشيخوخة وتقدم العمر ، وزيادة التجربة والروية ، ولكنه يبدو عجيباً حين نتكلم عن الشعر والفنون، لأن الشعر والفنون جمال ، والجمال مقرون فى الأذهان بالشباب وصحوة العمر ، وقد يكون مقروناً إلى حد كبير بالفرارة وقلة النصيب من التجربة والروية" (٧١) .

وإن كان الإحساس بالجمال وتقديره لا ينتهى بانتهاء الشباب ، والقدرة على التعبير عن الجمال لا تنقص بنقصان الشباب ، بل لعلها تزيد "إذ ينكشف الستر فى الخمسين وتبين الحقائق ، حتى تشبه حالة الاستشراف التى يذكرها الفلاسفة" (٧٢) .

ولو تصفحنا دواوين الشعراء العرب القدامى والمحدثين لوجدنا إنتاجهم الشعرى فى سنى الأربعين والخمسين أكثر إنتاجاً وأحسن إبداعاً .

وقد شغل أبو العلا المعرى فى شعره بتأثير الزمن فى الإنسان فى سن الخمسين فقال :

إذا ما عانق الخمسين حتى ثنته السن في عنق وجمر
وتهزأ منه ربات المغاني كما هزئت برؤية أم جمر
فلا أعرفك بين القوم توحي بطعن في محدثهم وغمز
ولا تهمز جليسك من قريب تنبهه على سقط بهمز
فسر الناس معروف لديهم بقول في مثالبهم ولمز
لقد كذب الذين طغوا فقالوا : أتى من ربنا أمر برمز (٧٣)

وهذه الأبيات من الممكن أن تندرج تحت ما اصطلح على تسميته بالشعر (المتمايز) باعتباره يشكل دراما صغيرة ، تدور حول حقيقة كونية تؤكد ضعف الإنسان وهوانه ، وأنه لا فرار له من هذا العالم لأنه محكوم عليه بالبقاء فيه بالموت ، وهو شعر ينزع إلى الحرية المطلقة ، ولكن هناك من يصادر على هذه الحرية ، ومن هنا لا يبقى أمام الشاعر غير الأنين، وغير تلك الخبرة التي شكلت بدورها وجود الشاعر وشعره ، ويتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن الوصول إلى سن الخمسين ، وكيف أن صاحبها أصبح عليه أن يتمهل في كل أمور حياته بعد أن كان يطير ويثب .

ويؤكد هذا بشئ يهم الإنسان هو انصراف الناس عنه تماماً كما فعلت (أم حمزة) (برؤبة بن العجاج) ، وهو هنا يستشهد بشاعر مغلوب على أمره بلغ الخمسين وأصبح يعاني من هزء (أم حمزة) .

ثم يقول مخاطباً انساناً في صورة الناصح له ، إنه وقد بلغ الخمسين عليه أن يكف عن نقائص تسمى الطعن والغمز والهمز واللمز ، وذلك لأن من طبيعة الناس كراهية من يتعرض لما فيهم من مثالب ، وكأنه يحكم على البشرية هنا بالبوار ، ذلك لأنه يقرر أن في الناس مثالب وأنهم يرفضون من يتعرض لها كأنها أصبحت أثيرة لديهم . وقد كان موفقاً حين ربط هذا بسن الخمسين لأنه في هذه السن تصبح الثرثرة وتناول الناس مقبولة مستحبة، ومرتبطة بجزء من الفراغ الزاحف عليها . ومع أنه يلح على ترك الناس لمثالبهم ، الا أنه في البيت السادس يفعل قاصدا ما سبق أن نهى عنه ، فهو هنا يتعرض لطائفة

(الباطنية) الذين يقولـون : "ان للقرآن ظاهرا وباطنا" ومن الملاحظ أن أبا العلاء لا يسمى – للظروف الخاصة به – من ينتقدهم وانما يترك ذلك لأهل الفطنة" .

والملاحظ أن الشاعر لا يستقصى معانيه وانما يثب وثباً سريعاً ، ولعل وراء ذلك أنه يريد أن يقول آراء تصدم المجتمع ، وكأننا بالشاعر يتخذ الحديث عن العمر معبرا سيتدرج منه إلى الحديث عن مثالب المجتمع وتحلله من الداخل ، وأن الإنسان مسحوق فى هذا الزمان وأنه محكوم عليه بالكثير من الصمت والكثير من الخوف لأنه مطلوب منه بقسوة أن يتقبل الأشياء كما هى لا أن يعارضها (٧٤) .

يقول المعرى :

أخمسين قد أفنيها ليس نافعي ... بتأخير يوم أن أعض على خمس
نرجى ايابا من غد وهو آيب ... وكان صوابا لو بكينا على أمس
ومازال هذا الجسم مذ فارق الثرى ... على تعب حتى أعيد إلى الرمس
ألم تر أيام الفتى فى عظاته ... بهمس تناجىأو أدق من الهمس(٧٥)

وكما نرى يتكلم المعرى عن الجسد والروح كإخوان الصفاء ، والفتى والدور المنوط به فى بث الدعوة والمبادئ الجديدة ، وسن الخمسين عند إخوان الصفاء هى المرتبة الرابعة" وهى التسليم وقبول التأييد ومشاهدة الحق عياناً ، وهى القوة الملكية الواردة بعد خمسين سنة من مولد الجسد ، وهى المهدة للمعاد ، والمقربة بمفارقة الهيولى ، وعليها ترد قوة المعراج ، وبها تصعد إلى ملكوت السماء (٧٦) .

هذا وتختلف الشيخوخة على حسب اختلاف الأعمال أو الأعباء التى ينهض بها الإنسان ، فالرجل الذى يعمل بأعضائه غير الرجل الذى يعمل بفكره ، وغيره الذى يعمل بحسه وشعوره .

وعلى هذا النحو يتغير الحكم على أبناء الستين أو أبناء أية سن من سنى الحياة ، ففى الستين تزداد قدرة الإنسان على البحث والاطلاع والحماسة والجرأة والقدرة فى إبداء الآراء ، كما تتقلص الخصومات والعداءات ، بل ويرتفع الإحساس بالجمال ، فما كان

يعجب ابن الثلاثين من مقاييس الجمال لا يعجبه وهو فى سن الستين ، وإذا كانت الحياة تستطيع أن تخدع الإنسان فى السنوات الأولى من عمره فيحبها ويعشقها وتخلبه بزخرفها وبهجتها فإن ابن الستين يحبها ولكنه أصبح أعرف بعيوبها وقيمها ، قليل الرجاء فى بنى الإنسان ، فالسن مكسب للعاملين بالعلم والحس والشعور ، فلا يهيض من قدرتهم ، كما تهيض من قدرة العاملين بالعضلات (٧٧) .

يقول العقاد : "إن الذين حسبوا أن الخوف والشيخوخة حالتان متلازمتان ، بقية من بقايا القرون الغابرة ، لأن العلم الحديث يعلم أن خرف الشيخوخة مرض من أمراض البنية وليس بعرض من أعراض الأسنان والأعمار . فمن نجا من جراثيمه نجا من أعراضه كما ينجو من الأمراض وكما ينجو من الجراثيم" (٧٨) .

ونظم كثير من الشعراء فى هذه السن متفائلين بها أو متشائمين ، يقول ابن الرومى :

قالت الغادتان : إذ أوقد الشيـ ... ـب سناه فلج فى ايقاده
فر منك الغزال يا لابس الشيـ ... ـب فرار الغزال من صياده
وإذا اصطادك المشيب فطارد ... ت غزالا فلست بالمصطاده
لست عند الطراد من قانصيه ... أنت عند الطراد من طراده
فعزاء ان ابن ستين يعيى ... عن طراد الغزال عند طراده
ومن النكر لهو شيخ ولو أمكنـ ... ـه الظبى عنوة من قياده
كيف يهتز للملاهى نبات ... أصبح الشيب مؤذنا بحصاده (٧٩)

ويرى ابن الرومى أيضا أن شوقه وطربه وهو فى سن الستين لم يكن لغناء الحمام وشدوه ، وانما لنواحه على أغصان متهدلة من الحسناوات ، يقول :

طربت ولم تطرب حين مطرب ... وكيف التصابى بابن ستين أشيب؟
ومما جداك الشوق نوح حمامة ... أرنت على خوط من البان أهدب
مطوقة تبكى ، ولم أر قبلها ... بدا ما بدا من شجوها لم يسلب(٨٠)

وكما نرى فالمرأة تحتل منزلة الصدارة فى شعر المشيب سواء الشعراء الذين يعزفون عن الحياة لحرمانهم من متعها ، أو أولئك الذين يقبلون عليها ويتهافتون على متعها . ومن هنا كان فراق الشباب يثير حسرة ويفعمها مرارة ولوعة . وقل أن نجد شاعراً يخلو شعره من عبرات يسفحها فى وداع أيام صباه ومراتع لهوه ، وأكثر ما نقع على هذه اللفتات الوجدانية فى مطالع القصائد ، وهذه المقدمات تكون أقصى ما تكون صدقاً عندما يحس الشاعر إعراض النساء عنه .

والغانيات لا يردن من بدا ... فى عارضيه الشيب لو رام الصبا
لما رأت شيبى عم مفرقى ... قالت : غبار يا خليلى ما أرى
ولم تزل تمسحه بمرطبها ... والقلب ما بين اياس ورجا
قلت لها موعظة علها ... تعى صروف ما رأت بى قد غلا
إما ترى رأسى حاكى لونه ... طرة صبح تحت أذيال الدجى (٨١)

وغنى الموصلى وقد ناهز الستين من عمره للمعتصم :

لاح بالمفرق منك القتير ... ذوى غصن الشباب النضير
هزئت أسماء منى وقالت ... أنت يابن الموصلى كبير
ورأت شيبا برأسى فصدت ... وابن ستين بشيب جدير (٨٢)

وربما أعانت الشيخوخة على النظم فى الغزل بأكثر مما يعين الشباب ، إذ تهدأ ثورة العواطف المستعرة التى تبلبل النفوس ، وأيضاً فإنها تعمق تجربة الشاعر وتعمق فهمه للحياة الإنسانية وما يدور فى قلب المحب من مشاعر ، وإذا فاتته حرارة الغزل المستمدة من حرارة الشباب فإنه لن يفوته استكناه أسرار الحب والنفوذ إلى لبابه وجوهره ، وإذا فاتته قوة الأسلوب فلن يفوته صفاؤه" (٨٣) .

وقد سبق أن عاب العقاد على جيتى شاعر الألمان الكبير الحب فى سن الشيخوخة، ولما عاش العقاد التجربة وعاناها رأيناه يعتذر لصديقه القديم جيتى فيقول :

يا صديقى القديم (جيتى) اعتذاراً ... لك من سوء ظنى وملامى
كنت أنعى عليك حبك فى الس ... تين بنت العشرين ، فاغفر ملامى
وأرانى على ملامك من قبل ... لحب دون الثمانين دام
فانتظرنى فقد يجيئ اعتذارى ... لك طوعاً فى مقبل الأيام

وينحو المعرى باللائمة على ذلك الذى ينجب فى سن الستين فيقول :

جنى ابن ستين على نفسه ... بالولد الحادث مالا يحب
تقول عرس الشيخ فى نفسها ... لا كنت يا شر خليل صحب (٨٤)

أما سن السبعين ففيها بديل بالرضى المعلوم عن الأمل الموهوم ، فالسبعون تعطينا الرغبة بقدر الطاقة وتعودنا الاستغناء عما يلزم ومالا يلزم .. وتعوضنا بالخبرة عن الوقت الثمين وهو مادة الحياة .

"فإذا احتجنا فى العشرين إلى عشرين سنة لنعرف انسانا نصاحبه ، فحسبنا فى السبعين عشرون ساعة لنعرف ذلك الإنسان غاية المعرفة التى تتاح للإنسان" وإذا كان ابن السبعين ممن يقرأون ويكتبون ، فحسبه عشرون سطراً من كتاب ليعرف ما هو الكتاب فى الجوهر واللباب .

وفى السبعين جديدها الذى تشتهيه الأنفس ، ولكنه جديد يذهب بسآمة التكرار" (٨٥) .

وفى الحقيقة إن العقاد كان موفقاً فى هذا الرأى ، وإن كنا نرى بعض الشعراء يتشاءمون من هذه السن :

يقول أبو العلاء المعرى :

من عاش سبعين فهو فى نصب ... وليس العيش بعدها خيره
والخير من زئبق تشكله ... وانما يرقب امرؤ نميره (٨٦)

ويبدو أبو العلاء المعرى متشائما فى الأبيات السابقة ، وفى الحقيقة إن الشيخوخة كما يقول العقاد حالة نرضاها أو لا نرضاها على حسب الظروف ، والحياة فى السبعين

فيها الكثير مما نرضاه ، وفيها البديل الصالح مما فقدناه فى العشرين ولم نجده فى الثلاثين ، ومما فقدناه فى الثلاثين ولم نجده فى الأربعين ، ومما فقدناه ونفده فى كل سن ولا نجده(٨٧) .

يقول المعرى متشائما وساخرا ممن يتزوج بأكثر من واحدة وهو فى السبعين :

تزوج بعد واحدة ثلاثا ... وقال لعرسه يكفيك ربعى
فيرضها إذا قنعت بقوت ... ويرجمها إذا مالت لتبع
وعقلك يا أخا السبعين واه ... كأنك فى ملاعبك ابن سبع(٨٨)

وبالأحرى القول إذا كنا نجد فى فترة الشباب العواطف الجياشة والتجارب الحية العميقة ، الا أنه فى سن النضج تتضح الأمور أكثر وتتبلور وتتمذهب ، وتحل فيه المعتقدات محل الشكوك ، وتحل الاجابات محل الأسئلة ، وتتجلى الحقيقة واضحة ، والمعرفة اليقينية المتسقة التى تتميز بالصراحة والاحكام حيث تستند إلى رصيد ضخم من التجارب الحية .

المشيب وأزمة العصر :

ومما هو جدير بالقول أن ليس كل من نظم شعرا فى المشيب يعد شاعراً متشائماً ، فهناك فرق بين الشاكين المتذمرين وبين المتشائمين من الشعراء ، إذ كثير منهم يذكر المشيب فى شعره باكياً شاكياً متبرماً ، ونفسه مليئة حيوية وحبوراً وحياة ، ولكن قليلاً منهم المتشائم والذى يكون تشاؤمه دليلا على نضوب فى معين الحياة وشح فى نصيب صاحبه من التخيل والشعور .

يقول العقاد : "إن الذين يذمون الحياة هم الراغبون فى حياة خير منها ، لا الراغبون فى الموت ، كما يتوهم الكثيرون ، وربما كان ذوو النقمة والسخط على الحياة أرغب فيها ممن يرضون عنها ويرتعون فى صفوها ونعيمها ، كما يكون المقامر الخاسر أرغب اللاعبين فى ملازمة مائدة اللعب إلى النهاية" (٨٩) .

ولو أمعنا النظر فى الشعر العربى لوجدنا أكثر الشعراء نحيباً على الشباب وتشاؤماً هم الشعراء الذين عاشوا فى عصور توقد فيها الصراع بين المعتزلة وأهل السنة ،

واضطربت فيها الحياة السياسية ، فاتخذ البكاء على الشباب عند بعض الشعراء لوناً آخر واتجه اتجاها فلسفياً تشاؤمياً متأملاً ، ولما كان الشعراء إفرازا لمجتمعاتهم سلباً وإيجاباً وجدنا إفرازات أفكارهم ألماً وكآبة وصرخات مكتومة ، فيكون الشباب متمثلين في أذهانهم شباب الأمة الإسلامية وفتوتها وقوتها . ومن هنا كان بكاؤهم على السواد الذى يمثل قوة الشباب وعنفوانه وطموحه ، والذى هو من جانب آخر معادل في قوته قوة الأمة إبان فتوتها ونهضتها ، فبكاؤهم على الشباب معادل موضوعى ورمز لهمومهم وأجوائهم الداخلية القاتمة على ماضى أمة تحللت وساد الفساد ربوعها . ولذا كان السواد عند بعض الشعراء رمزاً للشباب ، ورمزاً لفتوة الأمة فى سابق عهدها ، فمثلاً لون السواد هو لون "اشتهر به بنو العباس ، وأصبح شعاراً لهم منذ إنشاء الدولة العباسية" (٩٠) . ولم يجعل شعارها من لون الشباب – كما يقول ابن خلكان – إلا تفاؤلاً بأنها لا تهرم وأنها لا تزال محبوبة من أبكار السعادة بالحب الذى لا يسلى ، والوصل الذى لا ينصرم . وهذا معنى اخترعه ضياء الدين وسبقه إليه ابن التعاويذى فى قصيدته السينية التى مدح بها الإمام الناصر لدين الله أبا العباس أحمد ، أول يوم جلس فى دست الخلافة ومنها :

ورأى الغانيات شيبى فأعرضن ... وقلن : السواد خير لباس
كيف لا يفضل السواد ... وقد أضحى شعارا على بنى العباس

ولاشك أن ضياء الدين زاد على هذا المعنى ، لكن ابن التعاويذى هو الذى فتح الباب ، وأوضح السبيل فسهل على ضياء الدين سلوكه" (٩١) .

وهنا نفهم نوعاً آخر من البكاء السياسى على ما آل إليه حال الدولة من ضعف وخنوع بعد أن كانت دولة "كثيرة المحاسن جمة المكارم ، أسواق العلوم فيها قائمة ، وبضائع الآداب فيها نافقة ، وشعائر الدين فيها معظمه ، والخيرات فيها دارة ، والدنيا عامرة ، والحرمات والثغور محصنة ، ومازالت على ذلك حتى كانت أواخرها ، فانتشر الجبر ، واضطرب الأمر ، وانتقلت الدولة" (٩٢) .

وقد آلم ذلك الشعراء مرهفى الحس ، فتضوعت عندهم نظرتهم للحياة ، وانطفأت شموع الأمل فى نفوسهم ، فناحوا على شبابهم ، ووقفوا مما يدور حولهم موقفاً عدائياً ، فحين ولّى الرشيد أولاده الثلاثة "الأمين والمأمون والقاسم" العهد من بعده ، انعكست أصداء ذلك التصدع الذى سيصيب الدولة نتيجة الخلاف بين الأخوة الثلاثة ، وتاقت نفوسهم إلى أن يهيئ الله للرشيد حكماً صائباً يرأب الصدع ويجمع الشمل ويوحد الكلمة ، وأخذت نفوسهم تجيش وتختلط بعواطف غامضة، وراحو يطلبون أن يصلح الله الدهر المضطرب بعظائم الأمور التى تشيب الشعر – برأى حكيم وفكر صائب . وفى ذلك قال أحد الشعراء :

أقول لغمة فى النفس منى ... ودمع العين يطرد اطرادا
رأى الملك المهذب شر رأى ... بقسمته الخلافة والبلادا
رأى ما لو تعقبه بعلم ... لبيض من مفارقه السوادا
فويل للرعية عن قليل ... لقد أهدى لها الكرب الشدادا
وألبسها بلاء غير فان ... وألزمها التضعضع والفسادا (٩٣)

فالمشيب لا يصيب الإنسان والشعر فقط ، وإنما يصيب الأمة أيضاً إذا ما دب فيها الضعف والخور والوهن ، وأصبحت لا تستطيع أن تنشئ فى الإنسان سيرة قوية وخلقاً عالياً ، ولأن تأخذ بيد الإنسان وتصعد به إلى أعلى ما يكون من درجات السمو والرقى فى جميع شعب الحياة .

مثل هذا الضعف والاضطراب الذى يصيب الأمة يجعل الناس يميلون إلى النفاق والرياء ، فإذا هم يراوؤن السلطة ، وينافقون الآمر ، والشعراء أكثر إدراكا بما تنطوى عليه العلاقة بين الذات والعالم من تعقيد وغموض ، فتاقت نفوسهم الصادية لهفة إلى العدل والاستقرار والأمن ، وتضورت عندهم نظرتهم للحياة ، ورأوا ما يشيع من ظلم وقهر ولا يتمكنون من دفعه ، فلا عجب إذن أن يلجأوا إلى الشباب يسفحون عليه دموعهم هرباً من هذا الواقع المرير ، حيث الموازين مضطربة لاتقوم على العدل الإنسانى السليم ، وإنما تقوم

على هذا الظلم والقهر والنفاق الاجتماعى ، والاختلاف بين الناس فى توزيع الثروات ، فبعضهم فى نعيم ، وبعضهم فى شقاء .

ومن هنا اتخذ الشقاء لوناً اجتماعيا آخر أكبر من البكاء على المشيب عند بعض الشعراء الذين عاشوا فى هذه العصور ، وبصفة خاصة أولئك الشعراء الذين أشيع عنهم إنتماؤهم إلى مذاهب دينية كفرقة الشيعة وإخوان الصفاء ، فنقلوا حياتهم وأسقطوها على المشيب بعد أن أحسوا بالاغتراب فى أوطانهم والاغتراب لا يكون الا حين يعيش الإنسان فى وضع تاريخى بالغ البؤس والشقاء ، ويتميز أساساً بفقدان الحرية السياسية . هنا يكون الشاعر موزعاً بين قوتين متعارضتين ، قوة الحس ، وقوة العقل ، فيعمل العقل على قمع العواطف والانفعالات حين يعجز عن تغيير البؤس المستشرى فى المجتمع ، ويخلق لنفسه عالماً آخر ، إذ المجتمع لا يساعدهم على تحقيق ذواتهم والكشف عن أنفسهم بقدر يدفعهم دفعاً إلى التفكر والتخفى" (٩٤) .

لذا نحس فى شعر هؤلاء الشعراء : البكاء الممزوج بالحسرة والأنين ، والرغبة الملحة فى ترك الحياة . مثل ذلك نجده عند ابن الرومى الذى اتخذ المشيب منسرحا لأفكاره السوداوية القاتمة ، ومعادلاً رمزياً لآلامه الدفينة تجاه الفساد الواضع فى المجتمع ، وكثيراً ما نراه يربط فى شيباته بين فقده الشباب وفقد المجتمع للقيم والمثل ، إذ كان القرن الثالث الهجرى الذى وجد فيه ابن الرومى مجتمعا تجتمع فيه كل المتناقضات ، فقد كثرت فيه الفتن والثوارت ، وتسلط الموالى ، ومع ذلك ازدهرت العلوم ، واختلط العرب بالأمم الأخرى ، فأمتزجت بهم أفكارهم ، وأخذت من فلسفتهم. يقول العقاد عن عصر ابن الرومى : "كان أحسن الأزمان ، وكان أسوأ الأزمان ، وكان عصر الحكمة ، وكان عصر الجهالة ، كان عهد اليقين والإيمان ، وكان عهد الحيرة والشكوك ، كان أوان النور ، وكان أوان الظلمة، كان ربيع الرجاء ، وكان زمهرير القنوط ، بين أيدينا كل شئ ، وليس بين أيدينا شئ على الإطلاق قط ، وسبيلنا جميعا إلى سماء عليين ، وسبيلنا جميعاً إلى قرار الجحيم" (٩٥) .

وطبيعى والفساد يستشرى فى المجتمع هكذا ، وكل شئ فى تناقض مستمر ، أن نراه ينتحب على الزمن والصيرورة ولا منطقية الحياة ، ونحس فى شعره بروحه المتشائمة ، وأنه يود التعبير عن شئ ما فى نفسه لا قبل له بالتعبير عنه ، يقول :

أما رأيت الدهر كيف يجرى
يظهر ما أكتمه من عمرى
بأحرف يخطها فى شعرى
يمحو بها غصن الشباب النضر
إذا محا سطرا بدا فى أسطر (٩٦)

ويتخذ ابن الرومى المشيب متنفسا لهمومه العامة ، ومظهراً لأجوائه الداخلية ، ومنسرحاً لآرائه السياسية والاجتماعية ، فيصب فى إحدى شبيباته آراه فى فهم الحياة ، ويصور معاناته النفسية قائلاً :

كفى حزنا أن الشباب معجل ... قصير الليالى ، والمشيب مخلد
إذا حال جارى المرء شأو حياته ... إلى أن يضم المرء والشيب ملحد
أقول وقد شابت شواتى وقوست ... قناتى وأضحت كدنتى تتحدد
وبدل إعجاب الغوانى تعجبا ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وانها ... لأفسح مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل ، كأنه ... بما سوف يلقى من أذاها يهدد
وللنفس أحوال تظل كأنها ... تشاهد فيها كل غيب سيشهد
محار الفتى شيخوخة أو منية ... ومرجوع وهاج المصابيح رمدد (٩٧)

وفى هذا الشعر يشكو الشاعر الشباب والمشيب ومكر الزمن ، وتنكر الأيام له ، ونرى فيه الاضطراب والأعصاب المرتعشة والثورة النفسية القاتمة الكامنة والتى توشك أن تنفجر ، ونلمح صورة القلق المضطربة .

والواضح أن الشاعر لا يبكى الشباب فقط وإنما آلمه ما فى الحياة من مآس وشرور، فكان الشيب رمزاً لهذه الموازين المقلوبة والتى لاتقوم على العدل الإنسانى السليم ، وإنما تقوم على الظلم الذى تمارسه فئة على فئة ، ويحاول الشاعر أن يجد رمزاً آخر لهذا الظلم والهم المضطجع فى المجتمع ، فكانت صورة الطفل الرضيع الباكى ساعة مولده ينوح خوفا مما يستقبله من شرور وآلام ، فيعبر بصراحة عن رفضه الحياة ، أو قبولها مرغماً مضطراً رغماً عنه ، ولم ترد صورة الطفل الباكى ساعة مولده اعتباطاً فى شعره ، وإنما نراه يوظف هذه الصورة للدلالة على فداحة الوضع والشر المستطير، فيتكئ كثيراً على هذه الصورة ويتخذها رمزاً لقسوة الحياة ومعاناة الشاعر . يقول من قصيدة أخرى متكئاً على هذه الصورة :

ما بكاء الوليد إلا لأمر ... حقّ من مثله مشيب القذال
أتراه بكى من الروح والرحـ ... ـب على غمة وضيق مجال ؟
لا .. ولكن جلى هناك عليه ... ما سيلقى من العجائب جالى
أبصرت نفسه الذى هو لاق ... فرأت منه منظر الأهوال
من خطوب تغشى به كل حد ... وصروف ترمى به كل جال
فبكى معولا لذاك ومحقو ... ق بطول البكاء والإعوال (٩٨)

واستحضار ابن الرومى صورة الطفل الباكى ما هو الا ارتداء للوارء عن مواجهة الواقع وصفاقته ، وتأكيد على الظلم المقيم أبد الدهر ، يستشعره منذ ولادته ، ولا أمل فى اعتدال موازين الحياة ، فترتعش أفكاره ، ويئن مصعدا زفرات حارة ، ومولدا فكرا تأمليا ، ومولدا قتامة وكراهية للحياة والبشر ، يقول ابن الرومى متكئا على نفس صورة الرضيع الباكى الذى يشيب لاصطدامه بواقع كله متناقضات وأحداث جسام :

ألا إن فى الدنيا أعاجيب جمة ... وأعجبها ألا يشيب وليدها (٩٩)

فالإنسان فى الحياة قطب تدور حوله حوادثها ، وهدف لأرزائها ، منذ ولادته ، حتى تذهب بشبابه وقوته ، وتضنيه وتفنيه ، يقول ابن الرومى :

وثكلت الشباب بعد رضاع كان قبل الغذاء قدما غذاء (١٠٠)

ويقول :

سلوت شبابى والرضاع كليهما فكيف ترانى سالبا ما سواهما؟

وكما نرى فللشاعر نظر مباشر بالحياة يرقبها ويرى ما فيها من سلبيات وإيجابيات ، ويلح الشاعر على الجانب السلبى أكثر من إلحاحه على الجانب الإيجابى فيدرك طبيعة الخير والشر فى الحياة ، ومن ثم يحتاجه الحزن والبكاء فى آن ، ويربط محنته بفقد شبابه بفساد عام ينخر فى الحياة مطلقاً ، ونجد أنفسنا مجدداً بإزاء الموقف العلائى فى التوكيد على أن الفساد فى الكون والبشر جميعاً إن هو إلا فساد كامن فى الطبائع ذاتها ولا خلاص من ذلك الا فى مطلق العدم" (١٠١) . وعصور الأزمات "حافلة دائماً بالتناقضات ، كلما عاش الإنسان أزمة عصره كان أكثر وعياً بالتناقضات التى تكمن فيه" (١٠٢) .

هذا وقد راقت صورة الرضيع الساخط الباكى الشائب قبل أوانه لكثير من الشعراء فاتخذوها رمزاً ومعادلاً موضوعيا للثورة الخفية على النظم الاجتماعية ، ولرفض ما تقوم عليه الحياة من ظلم وجور ، وللتعبير عن غربتهم النفسية وأحزانهم الداخلية ، فنرى أحد الشعراء يعبر عن "هول الفتنة الجانحة التى حدثت بالشام ، وقد ولى الرشيد موسى بن يحيى بن خالد البرمكى بلاد الشام فأصلح بين أهلها ، فهبّ الشاعر واصفاً هذه الفتنة :

قد هاجت الشام هيجاً يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها بخيله وجنوده (١٠٣)

وفى نفس المعنى يقول ابن هانئ الأندلسى :

وسألت ما للدهر فيها أشيبا ... فإذا به من هول يأسك شابا
لقد سارت الركبان بالنبأ الذى ... يشيب له طفل وينصات أجلخ
والشيب يضرب فى فودى بارقة ... والدهر يقدح فى شملى بتبديد
ورابنى لون رأسى أنه اختلفت ... فيه الغمائم من بيض ومن سود(١٠٤)

فلفظ الطفل يشير إلى المرحلة الأولى المبكرة من عمر ، مما يشير إلى مرحلة التكوين النفسى الأولى وما يلازمها من قهر واستبداد . يقول أبو تمام :

يومى من الدهر مثل الدهر مشتهر ... عزماً وحزماً وساعى منه كالحقب
فأصغرى أن شيباً لاح بى حدثاً ... وأكبرى أننى فى المهد لم أشب(١٠٥)

فالشيب معادل لالآم نفسية عميقة ، يئن الشعراء من شدة وطأتها ، ولكنهم لا يجرأون على التصريح بها ، وأكثر ذلك نجده عند ذوى الحساسية المفرطة والمزاج السوداوى الحاد ، والإحساس بالنقص ، والذى يدفعهم كل ذلك للإيغال فى البكاء والنحيب ، وكان الشيب هو القنوات التى تتسرب من خلالها هذه الدموع ، فابن الرومى وظف الشباب واتخذه رمزاً يترجم به وعن طريقه عن آماله وتطلعاته وأحلامه ، وكان الشيب معادلاً لقتل هذه الأحلام والتطلعات ، فيشعر جراء ذلك بالإحباط نتيجة فقد التوازن بين الرغبات والإمكانات ، فجاء الشيب منذراً بفناء محقق ، وينتهى به الفكر السوداوى عند نهاية المطاف (الشيخوخة) فيئن أنين الذبيح مردداً :

سن بنتنى ، وعادت بعد تهدمنى ... حتى رزحت روزح العود ذى الجلب
وأغدت الرأس لونى دهره فغدا ... وقد حال عن دهمة كانت إلى الشهب
والدهر يبلى الفتى من حيث ينشئه ... حتى تكر عليه ليلة القرب
يغذوه فى كل آن وهو يأكله ... ويختسى نفبا منه على نغب
يودى بحال فحال من شبيبته ... تسرب الماء من مستأنف الكتب (١٠٦)

ويدل مثل هذا الشعر على اليأس المطبق واليقين من النهاية الحزينة ، لذا جاء التعبير فى هذه الأبيات وكأنها مناجاة نفسية مستسلما لليأس ودالا على العجز وفقد الأمل وتحطم الأحلام :

ونرى المتنبى أيضاً برماً بالحياة ، سوداوى المزاج كابن الرومى ، ضيق الصدر ، ناقماً على العصر وأبنائه ، طافح النفس بالمرارة والألم لما بها من متناقضات ، ولذا نرى البكاء على الشباب والعمر المضاع لا يمثل أزمة فردية بقدر ما يمثل أزمة عامة تتجاوز قضية الفرد إلى الإنسان عامة مطحوناً فى وطنه ، معذبا فى روحه .

يقول المتنبى :

وشبه الشئ منجذب اليه ... وأشبهنا بدنيانا الطغام
ولو لم يعل الا ذو محل ... تعالى الجيش وانحط القتام
إذا كان الشباب السكر والشيـ ... ـب هما فالحياة هى الحمام
وما كل بمعذور ببخل ... ولا كل على بخل يلام (١٠٧)

فالبكاء على المشيب هنا رمز للشقاء الإنسانى والقهر الآدمى والعجز التام عن تحقيق أية آمال أو طموحات فيكون البكاء على الشباب والشيب هو المنسرح الذى تنطلق فيه أفكار الشاعر ، وهو المتنفس لالآم نفسه . يقول المتنبى أيضاً :

أبنى أبينا نحن أهل منازل ... أبداً غراب البين فيها ينعق
أين الأكاسرة الجبابرة الأولى ... كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا
خرس إذا نودوا كأن لم يعلموا ... أن الكلام لهم حلال مطلق
والمرء يأمل والحياة شهية ... والشيب أوقر والشبيبة أنزق
ولقد بكيت على الشباب ولمتى ... مسودة ولماء وجهى رونق
حذرا عليه قبل يوم فراقه ... حتى لكدت بماء جفنى أشرق (١٠٨)

فالشاعر يشعر بالغربة ويستشعرها ، فهو يرى نفسه غريباً مشرداً سئ الحال ويرى قومه بعد عز ورفعة ومناعة وقوة جانب ، مشردين ، فقد تسلط عليهم من كان ينبغى أن يتسلطوا هم عليه ، واستأثر بالأمر دونهم من كان ينبغى ألا يكون له من الأمر شئ"(١٠٩).

ويتخذ الشاعر – كما رأينا – الشيب متنفسا لأحزانه ، ومعادلا لما بدا يدب "من ضعف أمته وخضوعها واستسلامها ، كما يبكى على الشباب ويعلل بكاءه هذا على شباب لم يفارقه ، بل لم يكد يستقبله بالخوف من مفارقته التى ليس منها بد ، وهو فى الحقيقة يبكى أيام فتوة الدولة وقوتها وتمسكها ، يبكى على نفوذ العرب الذى تقلص تدريجياً ، وزوال حكم العرب بعد أن استأثر به الفرس والعجم ، ولذا نحس "باطمئنان الشاعر إلى أولئك الذين يحدثهم لأنهم أبناء أبيه مصريين ولا عجماً ؟ ويسجل أن القحطانية أهل منازل نعب فيها غراب البين أبداً ، فالهجرة من طبعهم ، والغربة مفروضة عليهم"(١١٠) .

يقول الدكتور طه حسين : "فنحن بإزاء قصيدة لها خطرها فى تصوير نفس المتنبى حين كان يودع الصبا ويستقبل الشباب : هى نفس حزينة معناة مؤرقة ، لأن لها هماً بعيداً، ولأنها قد أخذت تفكر فى الناس وفى نفسها ، وتستنبط من هذا التفكير أموراً لا تسر ولا ترضى" (١١١) .

ونحس ما فى نفس الشاعر من ضيق وضجر ، فيذم الناس والزمان ويتخذ من الشيب منسرحاً لهذه الهواجس القاتمة ، ومتنفساً لهذه الالآم الحادة فيسخر من أولئك الذين يستسلمون للذل والقهر ، ويحس بعظمته وتفرده بأصالته وذكائه وإبائه الضيم وإن لم يستطع تحقيق طموحاته وأحلامه ، ويرى من هم أقل منه مرتبة ومنزلة يصلون إلى كراسى الملك وينعمون بالثراء ويكرهون عليه إكراها ، فيسخر من تناقضات الحياة وموازينها المقلوبة . يقول :

فـــؤاد مـــا تســـليه المـــدام وعمـــر مثـــل مـــا تهـــب اللئـــام
ودهـــر ناســـه نـــاس صغـــار وان كـــانت لهـــم جثـــث ضخـــام
ومـــا أنـــا منهـــم بـــالعيش فيهـــم ولكـــن معـــدن الذهـــب الرغـــام
أرانـــب غـــير أنهـــم ملـــوك مفتحـــة عيونهـــم نيـــام
إذا كان الشبـــاب السكـير والثيـــ ـب هما فالحياة هى الحمام (١١٢)

ولعل الشاعر هنا متأثر بالباطنية فى هذا الشعر ، إذ اتسم بسمات أقـرب مـا تكـون لمنهـج الباطنيـة حيـث اختـلاف ظـاهره عـن باطنـه ، ولعـل ذلـك هـو السـر فـى الغمـوض واستخدامه لتراكيب وصياغات متعددة المعانى .

فهو يقصد فى الأبيات السـابقة "أن الرعيـة أحـق بـالملك والسايسـة عـن ملوكهـا ، فمكان هؤلاء الملوك هـو مكـان الرعيـة وليـس الراعـى ، هـذا لـو كـانت القيـادة والإمـارة بالاستحقاق على عكس ما هو كائن ، غير أنه لا يستطيع أن يصرح بهـذا فاسـتخدم هـذه الرموز كنوع من الحيطة والحذر الذى اتصف به القرامطة والباطنية ، خاصة أنه كان يقصـد وراء هذا المعنى محاربة السلطان والثورة" (١١٣) .

فالأزمة عند المتنبى أزمة عامة ، إذ نراه ينظـر إلى مـا وصـل إليـه مجتمعـه وأهـل هـذا المجتمع من تمزق وضياع ولا مبالاة ، مما هيأ للموالى وضعاً جديـداً وسـط البنـاء الاجتمـاعى والسياسى بمرور الوقت كادت جذوة التباهى بالعربية والانتسـاب إليهـا تتلاشـى ، بعـد أن اندمج العرب مع العجم بالتزاوج والمصاهرة ، ومن هنا نجد الشاعر حتى وان كان علويا أو شيعيا ، فانه كان عليه أن "يهادن العباسيين أملا فـى اسـتعادة العـرب لأمجـادهم السـالفة ، ورأى فى سيف الدولة رمز دولة العرب المفقود ، فقد كان عربيا من تغلب بين ولاة كثرتهم من الأعاجم" (١١٤) .

لذا نقرأ شيبيات المتنبى فنحس اضطراب نفسه ، واضطراب حياة الناس فى عصره، كما نحس الحياة السياسية والاجتماعية لهم ، يقول :

ليت الحوادث باعتنى الذى أخذت — منى ، بحلمى الذى أعطت وتجريبى
فما الحداثة من حلم بمانعة — قد يوجد الحلم فى الشيبان والشيب(١١٥)

ونحس مع الدكتور شوقى ضيف أعصاب المتنبى وهى تهتز وترتجف فى شعره ، ومن ثم لا نبالغ إذا قلنا أنه لم يحس نفسه فقط ، بل أحس كل ماحوله من دقائق الحياة"(١١٦) .

ولا غرو "فقد وجد المتنبى فى عصر كان بدعا فى عصور الدولة العربية ، فانه كان عصر المطامع والشهوات والقلاقل والدعاوى ؛ فلذلك لم يترك وديعة نفس ولا دخلية طبع إلا حفزها واستفزها ورج وعاءها كما ترج القارورة لاختبار ما فيها ، فأبرزها للعين بصفوها وكدرها" (١١٧) .

يقول المتنبى :

راعتك رائعة البياض بعارض — ولو أنها الأولى لراع الأسحم
لو كان يمكننى سفرت عن الصبى — فالشيب من قبل الأوان تلثم
ولقد رأيت الحادثات فلا أرى — يقفا يميت ولا سوادا يعصم
والهم يخترم الجسيم نحافة — ويشيب ناصية الصبى ويهرم
ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله — وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم(١١٨)

نقول إن أكثر ضيق الشعراء وقلقهم وسخطهم على الحياة والأحياء إنما لوجودهم فى عصور تتسم بالأزمات والقلاقل ، وكتب عليهم وهم على ما هم عليه من حس مرهف أن تقع عيونهم كل يوم على مأساة ، لذا كثيراً ما كانوا يلجأون إلى المشيب يتخذونه رمزاً للتوصيل ما أرادوا إفهام الناس ما يرمون إليه من الأغراض السياسية والدينية، يفصحون من خلاله عما يشاؤن من المعانى النفسية والوجدانية بقدرة فائقة على استكناه الذات ، وينبغى أن نشير مثلا إلى أن أبا العلاء المعرى "كان من أنصار إخوان الصفا ، ولكنه كان يتستر اتقاء سخط الجمهور ، وكانت طريقته فى تأييدهم أن ينطق الأشخاص بعبارات مريبة"(١١٩) .

فنسمعه مثلا يقول :

لونان من ليل وصبح لونا ... شعرى وأضعفنى الزمان الأيد
والناس كالأشعار ينطق دهرهم ... لا يكذبوا ما فى البرية جيد
واصمت فما كثر الكلام من امرئ ... الا وظن بأنه متزيد (١٢٠)

فالمعرى يرى ضرورة الحيطة والحذر لضمان الأمن والسلامة ، إذ الإنسان كثيراً ما تنتابه أمور يحاول جهده إخفاءها لأنها لا تتفق مع العرف والتقاليد والدين ، غير أن هذه الأمور مهما حاول صاحبها اخفاءها فلا بد أن تظهر ويتكشف سترها ، ويحاول المعرى جهده أن يلزم الصمت حتى لا ينكشف ستر عقيدته :

كنت طفلا فى المهد والآن لا أهو ... ى رجوعا إليه فاعجب لأمرى
كم أعانى للدهر بيضاً وسوداً ... بين خضر من السنين وحمر
إلزم الصمت إن أردت النجاة ... ليس ضحضاح منطق مثل غمر
تنقذ الوقت غير جالب نفع ... خائضاً فى حديث زيد وعمرو(١٢١)

وهذا يضع يدنا أيضاً على مدى التستر والتخفى خوفاً من البطش والإيذاء النفسى، فلا غرو إذن أن نجدهم يستترون بالمشيب فى الحديث عمّا يرونه من آراء ، فالمعرى يود لو يعيش فى مكان قفر خال من البشر وشرورهم ، يقول :

شباب وشيب كالنبات كثيرة ... فمن بين رطب يستباح ويابس
وخير بلاد الله ما كان خاليا ... من الإنس فاسكن القفار اليابس(١٢٢)

يقول لاسل آبر كرمبى : "فالحادثات أو القصة التى توحى بالقريض لها فى نفس الشاعر مغزى خلاف ما بينهم من الوقائع العادية التى تضمنتها ، فذلك الحادث قد تملك عقل الشاعر ، لأنه رأى فيه رمزاً لوحى باطنى يدل على أدق وأعمق معانى الحياة" (١٢٣).

وتبدو فى شعر المعرى النظرة التشاؤمية السوداوية ، والتفكير الفلسفى الحزين ، ويبدو ثائراً على الأوضاع الاجتماعية ، وهذا الحزن العميق والتشاؤم المطلق أساسه ما يراه

من خمول وخنوع بيّن بين الناس ، لذا كانت هموم الشاعر تتعدى الأمور القريبة الخاصة إلى الهموم العامة المتصلة بالناس ، فيضيق بتبلد إحساسهم وغفلتهم لكثرة ما اعتادوا من ظلم وقهر وتضليل ، فاحتج على فساد البيئة ، وزهد فى المجد ، وقنع بالكفاف ، ورمى الناس فى عصره بالجهل والغفلة كما رأينا ذلك عند التنبى من قبل ، ويقول المعرى :

وقد طال عهدى بالشباب وغيرت ... عهود الصبا للحادثات عهود
وزهدنى فى هضبة المجد خبرتى ... بأن قرارات الرجال وهود
كأن كهول القوم أطفال أشهر ... تناغت وأكواز القلاص مهود
اذا حدثوا لم يفهموا ماذا دعوا ... أجابوا [illegible] (١٢٤)
والشيب شابوا على جهل ومنقصة ... والمرد فى كل أمر باطل مردوا(١٢٥)

لذا نراه يبيع الدنيا ويقهر حبها فى نفسه حتى يشترى كرامة نفسه وحرية رأيه ، فى عصر كمم القسر والجور ألسنة الرجال ، فسكتوا عن الحق خوفاً ، فرماهم بالجهل والخور والخنوع :

كيف أضحت شبيبة القلب جمراً ... وزالت من السواد الشبيبه
فالزمى النسك إن علقت وفرى ... من ذوى الجهل كى تعدى حبيبه(١٢٦)

فكان تنسكه وزهده عن الناس اضطرارياً إجبارياً فراراً من فساد المجتمع ، وعجزاً عن احتمال الضيم ، فرأى فى اعتزاله الراحة الكبرى من دنس العصر ، ولؤم الساسة .

كذلك خرج المشيب فى شعر البارودى من نطاقه الضيق المحدود إلى نطاق أوسع وأرحب ، فعبر عن الأزمة العامة التى مرّ بها الشعب المصرى فى ذلك الوقت ، متخذاً الشاعر المشيب معادلاً رمزياً لضيقه السياسى . يقول مثلا مستنهضا همم قومه ، مستنكراً خضوعهم وذلة أنفسهم :

متى أنت عن أحموقة الغىّ نازع ... وفى الشيب للنفس الأبيّة وازع
ألا إن فى تسع وعشرين حجة ... لكل أخى لهو عن اللهو رادع
فحتام تصيبك الغوانى بدلها ... وتهفو بليتيك الحمام السواجع(١٢٧)

وتدل هذه الأبيات على أن أزمة الشاعر ليست أزمة نفسية ، وإنما هى أزمة قومية "واسماعيل هو العلة الحقيقية لأزمته النفسية إذ مضى يستدين من الأوربيين ، وحتى بدا فى الأفق أن كارثة فظيعة لابد أن تحيق بالبلاد إذا استمر ينفق القناطير المقنطرة من الذهب والفضة على قصوره وملاذه . يقول الدكتور شوقى ضيف "ومعنى ذلك أن أزمته النفسية لم تكن ترجع إلى أسباب شخصية ، إنما كانت ترجع إلى أسباب قومية وإلى وطنه الذى استشعر فى قوة حبه منذ مقامه فى كريت فمضى يتغنى به وعاد فوجده على حافة خطر تكاد تودى به ، حينئذ تثور نفس البارودى ثورة عارمة"(١٢٨) .

وحين ننعم النظر فى قوله :

نزعت عن الصبا وعصيت نفسى ... ودافعت الغواية بالتأسى
ومن يك جاوز العشرين تترى ... وأردفها بأربعة وخمس
فقد سفرت لعينيه الليالى ... وبان له الهدى من بعد لبس
نظرت إلى المراة فكشفت لى ... قناعاً لاح فيه قتير رأسى (١٢٩)

نحس فى هذا الفناء بضرب من التغير فى طبيعته وكأن أزمة ألمت بنفس الشاعر وهو يعلن بدء هذه الأزمة إعلاناً صريحاً ، قائلاً إنها انتابته فى التاسعة والعشرين من عمره ، أى فى سنة ١٨٦٨م ، وكأنه حاول أن يستر عنا بواعثها الحقيقية ، إذ ردها إلى ظهور الشيب واشتعاله فى رأسه "وفى رأينا أن ذلك الضيق يرجع إلى إحساسه العميق بفساد حاشية اسماعيل نفسه ، وما أخذ يثقل به ظهر البلاد من أعباء الديون ، وآية ذلك الرأى الذى نزعمه ما يمتلئ به شعره من شكوى ممضة يتبرم فيها بالناس وأخلاقهم وما يسارعون إليه من الشر البشع وما يضمرونه من الخبث والمكر والخيانة والغدر ، وهو يطيل فى هذه المعانى إطالة لا نعهدها عنده قبل هذه الفترة من حياته" (١٣٠) .

ومن هذا الشعر الذى يتبرم فيه من الزمان ورزاياه وأحداثه ويردها إلى المشيب ، – مما يؤكد ما ذهب إليه أستاذنا الدكتور شوقى ضيف – ، قول البارودى :

أخنى على مع الزمان ، وليته ... لما أساء الدهر صنعا أحسنا
ورأى المشيب تلونت ألوانه ... فى عارضى من الأسى ، فتلونا
والمرء فى (الدنيا) رهين حوادث ... تودى بجدته ، وتلبسه الضنى
ليت المشيب تأخرت أيامه ... حتى أفوز من الشبيبة بالمنى (١٣١)

ونرى فى شعره أن حوادث الدهر ونوازله قد اشتدت عليه حتى أنحلته وأضعفته ولم تترك فى ثيابه غير بقايا من همة ، ويأس على ما صار إليه من نحول وضعف وشيب ، فالباردوى إذن يتستر بالمشيب فى مقاومة الطغيان والفساد والمنفعة ، وفى الدفاع عن الجماهير التى أهدر القصر حرمة إنسانيتها ، ولم يستطع أن يسكت على البغى والشر فيعبر عما تفعله حوادث الدهر به ، فبكى شبابه وبكى الوطن ، وبكى الشيخ المرصفى وعبد الله فكرى وبكى نفسه ، حتى غدا أشلاء همة لا يكاد يسمع ولا يبصر ، يقول :

أخلق الشيب جدتى وكسانى ... خلعة منه رثة الجلباب
ولوى شعر حاجبى على عينى ... حتى أطل كالهداب
لا أرى الشئ حين يسنح إلا ... كخيال كأننى فى ضباب
وإذا دعيت صرت كأنى ... أسمع الصوت من وراء حجاب
كلما رمت نهضة أقعدتنى ... ونية لا تقلها أعصابى
لم تدع صولة الحوادث منى ... غير أشلاء همة فى ثياب (١٣٢)

ويصور الباردوى لوعته على شبابه ، ويبكى هذا الشباب المولى بحسرة ، ويقرن شبابه وصوره وقوته بمجد الأمة البائد وفتوتها وازدهارها وان كان لا يصرح بذلك . يقول:

ردوا على الصبا من عصرى الخالى ... وهل يعود سواد اللمة البالى
ماض من العيش ما لاحت خمائله ... فى صفحة الفكر الا هاج بلبالى(١٣٣)

فهو يبكى على ما نعتقد – ماضى وطنه وما كان لهذا الوطن من قوة جانب ورهبة وصولة ، ويتمنى لو يعود الوطن إلى سابق عهده ، ولكن هيهات فهو غريب الدار منفى عن الوطن والأهل ولن تعود دورة الحياة إلى الوراء .

هذا واننا نحس بتشابه فى الآراء والمزاج والسلوك فى الحياة بين هؤلاء الشعراء ، وبصفة خاصة المتنبى وابن الرومى وأبى العلاء المعرى ، فقد كان كل منهم برماً بالحياة ، طافح المرارة ، سوداوى الطبع والمزاج وإن كان ذمهم للحياة والأحياء وسخريتهم منها – على ما يبدو – ليس كرها فيها ، فمن الناس من "يسخر بالحياة سخر المعود بالمائدة ، ومنهم من يسخر بها سخر المتخوم المكتظ بطعامها ، فالأول يسخر بالحياة لأنه لاحظ له فيها ، والآخر يسخر بها لأنه أصاب معها جميع حظوظها ، وربما كان الأول أفطن إلى العيوب وأسرع وقوعاً على القبائح المتوارية من صاحبه ، لأن رغبته فى إظهار العيوب والقبائح مقرونة بألم السخط والحرمان" (١٣٤) .

فلم نعرف مثلاً أن ابن الرومى كان كارهاً للحياة عن فلسفة مجردة" بل كان محباً للحياة مقبلا عليها ، يريد أن يحصل على أطايبها ، وأن يكون له منها حظ كبير ، ولعل هذا صدى لما لقيه من إدبار الحياة عنه وتنكر الآخرين له ، فكان له موقف السخط على تجاهله فيها ممن كان ينتظر منهم الاهتمام" (١٣٥) .

كذلك المعرى لم يزهد فى الحياة على كره لها وبغض فيها" بل إنه كان يحبها ويشكو من وقوعه تحت أسر هذا الحب ، ولم يكف عن الشكوى مما رسخ فى نفسه من حبها ، والأنين مما ظل يكابد من أشواق بشريته المكبوتة وحاجاته الغريزية المقهورة" (١٣٦) .

لقد أحب المعرى الدنيا وأذاع ذلك بصراحة مدهشة ، فقال : أحب الدنيا وآلتها ليست فى ، وقد يئست من بلوغها واليأس مريح ، فإلام التشوف والضلال ، إنما أنا رجل بلى بالصدى ، لايجد أبداً مورداً .. فهو ظمآن أبدا" (١٣٧) .

وكثيراً ما نحس بروح التحدى فى شعره ، وأنه دائماً فى تشاكس مع الزمن ، ولعل ما لاقاه من رزايا الدهر جعلت هذه النغمات السوداوية تطغى على شعره فنسمعه يقول :

رب ليل كأنه الصبح في الحسـ ـن وان كان أسود الطيلسان
قدر كضنا فيه إلى اللهو حتى وقف النجم وقفة الحيران
وكأني ما قلت والبدر طفل وشهاب الظلام في العنفوان
ليلتي هذه عروس من الز نج عليها قلائد من جمان
هرب النوم من جفوني فيها هرب الأمن من فؤاد الجبان
وكأن الهلال يهوى الثريا فهما للوداع معتنقان
ثم شاب الدجى فخاف من الهجـ ـر فغطى المشيب بالزعفران(١٣٨)

فتغطى النغمة السوداوية القاتمة على شعره ، فنرى سواد الظلمة في أسود الطيلسان وعروساً من الزنج وعنفوان شباب الظلام ، وتتردد ألفاظه بين التفاؤل والتشاؤم واليأس والأمل ، لتشكل موضوع الحيرة المفضي إلى القلق الوجودي (١٣٩) .

والمتنبي لا يقل حباً للحياة عن زميليه ، فقد أحبها وعشقها ، وكان يحمل بين جنبيه آمالاً كبارا لا سبيل إلى تحقيقها له "إلا أحلامه العامة القومية وأحلامه الخاصة الشخصية ، فالأولى تتمثل في عودة الدولة العربية القديمة المهيمنة ، والقضاء على الأعاجم المتسلطين ، واستبدال ما هو عربي بكل ما هو أعجمي ، وجعل الإنسان العربي كما كان في الماضي المجيد ، حيث الشموخ والرفعة والأنفة والكبرياء ، كما أن له أحلامه الخاصة ، فيرى شخصه أحق بمكانة عالية مرموقة ، مكانة الأمراء والملوك لما يملكه من شيم الإمارة ومواصفات السلطان ، وبما لديه من قيم ومثل عربية وإسلامية متأصلة ، ولما في قلبه من شجاعة وإقدام ، زد على ذلك ما هو عليه من عبقرية شاعر بذ أقرانه وتفوق عليهم بما يعي من علم ومعارف لم تتوفر لمعظمهم ، ومن نسب العرب والعروبة لم يتوفر لبعضهم" (١٤٠) .

ومعنى كل هذا أن كلا من هؤلاء الشعراء المبدعين كان يحيا حياة فنية صحيحة ، حياة ملؤها الإحساس الحاد بأنفسهم واختلاجاتهم الباطنية وبما ينبض به المجتمع والكون من حولهم ، فعبروا عنه أحسن تعبير ، بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر إذا ما خافوا البطش ، كما رأينا تسترهم بالمشيب .

الخصائص الفنية :

وتبدو كراهية الشعراء الذين تحدثوا عن المشيب للناس ، ولكن هذه الكراهية تقترن بالاشارة إلى خيبة أمل مريرة ، إذ تشير أشعارهم إلى أنهم أحسنوا الظن بالناس مرارا ، وازدراؤهم لكلام الناس يعقبه ما يشير إلى رغبتهم فى أن يكون مرغوبا فيهم ، ولكن الناس يقابلونهم بالعداوة والبغضاء ، ولذا كانت علاقتهم بالناس يسودها كثير من التوتر ، وترتبط بخيبة الأمل المتكررة ، فهم يبحثون عن الحب ولكنهم لا يجدوه ، ومن ثم يتسم الناس بالسوء .

كما يبدو أن علاقتهم بهم تقوم على التعالى عليهم ولكنها تحمل إلى جانب ذلك الرغبة فى أن يكونوا محبوبين ، وإن كانوا لا يشيرون إلى محبتهم هم للناس ، ويرتبط الحديث عن الناس فى شعر المشيب بموقف الإنسان المستمر من الحياة ، وعلاقته بالموت والحياة والدنيا ، وعلاقته بالزمن ، ولذا نجد استعمال لفظ (الناس) وليس الإنسان انما ليمثل أفراداً كثراً لا حصر لهم يشترك جميعهم فى نفس المأساة . كما تدل أيضا على التوالى والتتابع وتعاقب الأجيال ، وتجربتهم وخبرتهم بالحياة . كما نجد أنهم فى استعمالهم لفظ الناس وليس (الإنسان) يفصلون أنفسهم عنهم ، مما يدل على الوحدة والغربة النفسية والروحية ومدى القنوط المستحوذ على النفس الشاعرة ، فالمتنبى يقول :

وما خضب الناس البياض لأنه ... قبيح ولكن أحسن الشعر فاحمه

وأوفى حياة الغابرين لصاحب ... حياة امرئ خانته بعد مشيب (١٤١)

فالشاعر يتحدث عن الناس فاصلاً بينه وبينهم ، فيأمل من بعيد دون أن يشترك فى الأحداث.

يقول المعرى :

يكاد المشيب ينادى الغوى ويحك أتعبتنى بالمقص
وتزعم أنك فيما فعلت على أثر من رشيد تقص
وهل تلك من شيم الراشدين وما زاد فى كل حال نقص
إذا ستر الناس عنك الأمور فلا تك عن أمرهم ذا تقص(١٤٢)

فالشاعر كما رأينا يقف ليشاهد الأحداث على بعد ، ويستمد منها العبرة والعظمة . هذا ويرتبط لفظ المشيب أيضاً بألفاظ أخرى تدل على العلاقات الاجتماعية والعواطف الإنسانية ، وصفات الإنسان وخصائصه وعواطفه ونوازعه وآماله وطموحاته ، وبعض هذه الألفاظ يتعلق بشخص الإنسان وأعضائه كالنفس والروح والقلب والعين والشعر واليد .. الخ .

فمثلاً يرد لفظ النفس مرتبطاً بالمشيب ولوروده أثر فعال ، إذ يعمل على استحضار الذات ، ويحمل لفظ النفس نوعاً من الثنائية بين الشخص وذاته ، ونجد النفس فى أحايين خاضعة للشخص ، وفى أحايين أخرى يخضع الشخص لها ، وإن دل ذلك عن شئ فإنما يدل على شدة الوعى بالذات والتركيز عليها تركيزاً يدل على الأنانية ، وإنما يدل على محاسبة النفس ومواجهتها ، ويبدو الإنسان وكأنه يحمل بين طياته نفسين أو ذاتين تواجه إحداهما الأخرى ، وأحياناً أخرى تبدو النفس وكأنها كائن مستقل عن الإنسان كقول المتنبى :

وفى الجسم نفس لاتشيب بشيبه ولو أن ما فى الوجه منه حراب
لها ظفر ان كل ظفر أعده وناب إذا لم يبق فى الفم ناب(١٤٣)

فالنفس هنا تبدو وكأنها مستقلة عن الجسد وعن الشاعر ، وهى كما ترى لا تشيب فينهار الجسد ويتداعى ويهرم ، ومثل ذلك أيضا قوله :

هـوى النفـوس سـريرة لا تعلـم   عرضـا نظـرت وخلـت أنـى أسـلم
راعتـك رائعـة البيـاض بعـارضى   ولـو أنهـا الأولى لـراع الأسـحم
لو كان يمكننى سفـرت عن الصبى   فالشيب من قبـل الأوان تلثم(١٤٤)

"ويبدو الشاعر هنا متأثراً بالفلاسفة والمتكلمين عـن انسـلاخ الـروح عن الجسـد أو ذوبان الروح فى الهوى وأن الحب يتمكن مـن النفـس طالما بقيـت هنـاك روح بنفـس قوتـه وشدته وقت أن كان الإنسان فتيا قوياً" (١٤٥) .

ويقول البارودى :

وكان يحزننى شـيبى ، فصـرت أرى   أن الـــذى بعـــده أولى بـــأحزانى
وهـون الأمـر عنـدى أن كـل فتـى   وان تمـلا مــن مــاء الصبــا فــانى
يا نفس لا تذهبى بأسـا بمـا كسـبت   يــداك ، فــا لله ذو مــن وغفــران
يعفو عن الذنب، حتى يستوى كرما   لديه ذو العمل المبرور والجانى(١٤٦)

فالشاعر يجوس خـلال أغوار نفسـه لاستكشـافها ، وعجـم مجاهلهـا ، ليكشـف لنـا عورات الذات البشرية وعلاتها ، مستخدماً لفظ النفس وكأنها منفصلة عن الـذات ، وفـى بعض الأحايين ترد النفس مرادفة للفظ الروح ، ويتضح من شعر الشيبيات أن لفـظ الـروح لم يرد بكثرة وهو يفيد معنى الحياة المجردة عن أية اشارة دنيوية . يقول المعرى :

كيـف احتيـالك والقضـاء مدبـر   تجنـى الأذى وتقـول أنـك مجـبر
أرواحنـا معنـا وليـس لنـا بهـا   علم فكيف إذا حوتها الأقبر (١٤٧)

أما لفظ النفس فبالإضافة إلى أنه يشير إلى الحياة ، إلا أنه يحمل الإشارة إلى الرغبـات والمطامح والآمال كما سبق ، ويرتبط الشيب بلفظ الجسم ونجد أن هذا اللفظ يتكرر كثـيراً ويرتبط دائماً بالوهن والضعف والسقم والنحول ، وغالبـاً مـا يرتبـط استعماله لهذا اللفـظ بالشكوى من الزمان ، وقصور قدرة الإنسان عما يهدف إليه ، أو هـى تبـدو مـن المعوقـات المفروضة على الإنسان وضعفه ، وتظهر فيه آية الشيخوخة والمشيب مسطرة واضحة .

وغالباً ما يرتبط لفظ "العين" بالرؤية أو التبصر فى أشعار المشيب ، ويشيع استعمال الفعل الماضى "أرى" وغالباً ما نراه يحمل دلالة على الرؤية القلبية أكثر من دلالته على الرؤية البصرية ، كقول المعرى :

سار الشباب فلم نعرف له خبرا ولا رأينا خيالاً منه منتابا
ألقى الكبير قميص الشرخ رهن بلى ثم استجد قميص الشيب محتابا(١٤٨)

فالرؤية هنا تحتمل الرؤية القلبية والبصرية ، على أننا نرى أن الفعل "رأى" لا يؤدى المعنى الفعلى له إلا من الإلماح إلى الرؤية البصرية ، مثل قول المعرى فى موضع آخر :

أرى طولا عم البرية كلها فيقصر بالحكم الالهى أو يرخا
ذكرنا الصبا ثم ترادفت حوادث أنستنا الشبيبةوالشرخا(١٤٩)

وكقول ابن الرومى :

أرى ابن آدم أجرى ليله ونهاره بعدل فلا هذا ولا ذاك سرمد
وجار على ليل الشباب معاشر فقالوا:نهارالشيب أهدىوأرشد(١٥٠)

ونلاحظ مما سبق أن الشاعر قد استعمل الفعل "أرى" متصلاً بضمير المتكلم مرة ، ومتصلاً بنا الفاعلين رأينا" مرة أخرى ، وكثيرا ما يتصل الفعل "أرى" بتاء المتكلم ، وعند اسناده لهذا الضمير يرد الفعل غالباً فى أول البيت مما يدل على التركيز لهذه الرؤية المنسوبة إليه ، كما يدل على تميز الشاعر للأمور ونظرته للحياة والتبصير فيها ، وذلك كقول ابن الرومى :

رأيت خضاب المرء عند مشيبه حدادا على شرخ الشبيبة يلبس
وإلا فما يغرى امرءا بخضابه أيطمع أن يخفى شباب مدلس؟
وكيف بأن يخفى المشيب لخاضب وكل ثلاث صبحه يتنفس
وهبه يوارى شيبه ، أين ماؤه وأين أديم للشبيبة أملس؟ (١٥١)

وإن كنا نرى أن لفظة "الرؤية" ترد بجميع مصاحباتها اللغوية كقول ابن الرومى :

وصاحب شيب مالم تبل جدته ... من صبغه شيبه فى عز منتصر
رأى مظالم شيب فى مسانحه ... لم يجنها السن لكن رأوية العبر
ولا جناح على حام حقيقته ... لا ظلم فى دفع ظلم عند ذى بصر
وإنما الظلم منع الشيب لمته ... عند انقضاءالشباب اللدن والوطر(١٥٢)

وكقوله :

كبرت وفى خمس وخمسين مكبر ... وشبت فألحاظ المها منك نفر
إذا ما رأتك البيض صدت ، وربما ... غدوت وطرف البيض نحوك أصور
وما ظلمتك الغانيات بصدها ... وان كان من أحكامها ما يجور
أعر طرفك المرآة وانظر فان بنا ... بعينيك غنك الشيب فالبيض أعذر
إذا شئت عين الفتى وجه نفسه ... فعين سواه بالشناءة أجدر (١٥٣)

كذلك ارتبط المشيب بالألفاظ المتعلقة بالدهر والزمان والصباح والمساء ، وهناك فرق فى دلالة كل لفظ من هذه الالفاظ "فالدهر فى الأصل اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه .. ثم يعبر به عن كل مدة كبيرة ، وهو خلاف الزمان ، فإن الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة"(١٥٤).

وحين يستخدم الشاعر لفظ الزمان إنما ليدل إلى فترات محدودة أو متغيرة كقول المعرى :

شر الزمان زمان أشيب دالف ... وصباه أنفس وقته وأجله (١٥٥)

فلا يحمل لفظ الزمان كما نرى الإشارة إلى الأزل التى يحملها للفظ الدهر كما نرى والذى يرتبط ويرمز للأحزان والخطوب والشرور ، ومن اللافت للنظر أن استعماله لفظ الدهر يغلب عليه التشخيص ، فالشاعر يجسده ويشخصه ويخلع عليه حياة ويؤنسه ويحاوره ويحادثه محادثة الإنسان للإنسان ، مثل ذلك نجده فى قول ابن الرومى :

أرى الدهر أجرى ليله ونهاره بعدل فلا هذا ولا ذاك سرمد
وجار على ليل الشباب فضامه نهار شيب سرمد ليس ينفد (١٥٦)

ومثله قول الباردوى :

أخنى على مع الزمان ، وليته لما أساء الدهر صنعا أحسنا
ورأى المشيب تلونت ألوانه فى عارضى من الأسى، فتلونا(١٥٧)

فتبدو سيطرة الدهر على الإنسان كما نرى ، وهذا التكرار للفظ الدهر يحمل الإشارة إلى الزمان الأبدى وموقفه من الإنسان . ويكثر المتنبى من استخدام لفظ الدهر مع المشيب أكثر من استخدامه للفظ الزمان مما يدل على القلق والاسوداد ، ومن هنا قال بعض الباحثين : "إن أبا العلاء استمد بذور تشاؤمه من المتنبى" (١٥٨) .

ويوحى لفظ الدهر بالضيق والكآبة ، ويستخدم رمزاً للظلم والبطش ، كما يوحى بمدى ما يعانيه الشاعر من ظلم الدهر ولاسيما أنه كانت تراوده فكرة عداء الزمان له ومطاردته إياه ، كما فى قول المعرى :

تقادم عمر الدهر حتى كأنما نجوم الليالىشيب هذى الغياهب(١٥٩)

ويقول ابن هانئ الأندلسى مستخدماً لفظ الدهر مع المشيب مما يوحى بالكآبة والضجر :

والشيب يضرب فى فودى بارقة والدهر يقدح فى شملى بتبديد (١٦٠)

ويقول :

وسألت ما للدهر فيها أشيبا فإذا به من هول يأسك شابا (١٦١)

ومن الألفاظ التى يكثر دورانها فى شعر المشيب لفظ "الليل" ومصاحباته اللفظية ، وهى ألفاظ تمثل للشاعر العالم النفسى الحقيقى والخواء العاطفى ، والإحساس الحاد بالفناء واقتراب الموت ، كما تدل على الدهشة من اقتحام المجهول ، كما تثير الدهشة ، وربما كان

ذلك لارتباط النجوم بأساطير متعددة فى التراث العربى ، ومعتقدات تشير إلى تأثيرها على الحياة والإنسان ، ومن هنا يتوقف الشعراء لديها متأملون . يقول ابن الرومى :

وجار على ليل الشباب فضامه نهار مشيب سرمد ليس ينفد
وعزاك عن ليل الشباب معاشر فقالوا : نهار الشيب أهدى وأرشد
وكان نهار المرء أهدى لسعيه ولكن ظل الليل أندى وأبرد (١٦٢)

وكقول أبى العلاء المعرى :

وذاك أن سواد الفود غيره فى غرة من بياض الشيب أضواء
إذا نجوم قتير فى الدجى طلعت فللجفون من الاشفاق أنواء(١٦٣)

وقوله :

تقادم عمر الدهر حتى كأنما نجوم الليالى شيب هذى الغياهب
يهود باغى الحاج والليل مسلم على كفره والأرض فى زى راهب(١٦٤)

وهكذا يكثر فى شيبيات الشعراء الكثير من الألفاظ الدالة على الشقاء الإنسانى ، والاسوداد الدنيوى ، مثل القبر واللحد والحزن والأذى والفناء والبكاء والهرم والمنية ، وكلها تتردد مع مصاحباتها اللفظية لتعبر عن قتامة داخلية مخيفة .

ومن الجدير بالملاحظة استخدامهم لفظ "العيس" مع الحديث عن المشيب كقول المعرى :

وحق للعيس لو نالت بنا بلدا فيه الصبا كون عهود الهند أقتابا
ألقى الكبير قميص الشرخ رهن بلى ثم استجد قميص الشيب مجتابا(١٦٥)

واستخدم ابن الرومى أيضاً لفظ "العيس" مع المشيب فى قوله :

راع قلبى مشيب رأسى فليس راع جهلى الكيس بالتكيس
جالك غيرته جون وعيس فهو لونان بين جون وعيس
والليالى وناسخات الليالى توشك القدح فى الصحيح المكيس(١٦٦)

والعيس هنا تدل على الإبل البيض يخالط بياضها شئ من "الشقرة" (١٦٧) ، ولعل فى استخدامهم للفظ "العيس" هنا ما يوحى بشئ من الأمان والاطمئنان النفسى ، أو لعلها تبعث فى نفوسهم شيئاً من الأمل الذى يحدوه فى مستقبل يتوسم فيه السعادة والإشراق . كما أن البياض سمة تقترن فى المفهوم العربى بالنبل ، وذلك يوحى إلى ما يعتمل فى نفس الشاعر من أمل وطموح فى مستقبل مشرق يتخلص من المفاسد والموبقات المستشرية فى عصره .

هذا وترد على قلة ألفاظ مرتبطة بالنبات كالزهور والرياض ، ولكن فى سياق حزين يشير إلى الفناء والعدم والحرمان من جمال الحياة ، أما صور الروابى فهى صور وادعة محببة إلى النفس ، ولكن الشاعر يمزجها مع ذلك بصور المشيب الكئيبة ويصور الموت والتحلل . ومثل هذه الأشعار تشير إلى الأجواء الداخلية الحالكة ، والنظرة السوداوية للحياة ، والاحساس باليأس المطلق فى عدم صلاح المجتمع والناس .

يقول المعرى :

قد شاب رأسى ومن نبت الثرى جسدى ... فالنبت آخر ما يعشو به الجسد
إذا ركبت لادراك العلا سفنا ... فالبحر يحمل مالا يحمل النهر (١٦٨)

ويقول متشائما :

عمرنا الدهر شبانا وشيبا ... فبؤس للرقاد وللسهاد
وأوطنا الديار بكل وقت ... فألفينا الروابى كالوهاد
إذا اقترنت بجسم الحى روح ... فتلك وذاك فى حالى جهاد (١٦٩)

ومثل قوله مفضلا حياة القفار والفيافى على حياة المجتمع والناس :

شباب وشيب كالنبات كثيرة فمن بين رطب يستباح ويابس
وخير بلاد الله ماكان خاليا من الانس فاسكن فى القفار اليابس(١٧٠)

ومن الألفاظ الواردة فى أشعار المشيب ألفلظ : البحر والنهر والغدير والماء ، وكلها ألفاظ ترتبط أكثر بالأمل والتطلع إلى الخير ، وإن كان لفظ البحر يمثل العالم الرهيب ، كما يمثل الدهشة والإعجاب والخوف من المجهول ، يقول أبو العلاء المعرى :

من يخضب الشعرات يحسب ظالما ويعد أخرق كالظليم الخاضب
والشيب فى لون الحسام فلا تدع جسد النجيع على الحسام الغاضب
عمرى غدير كل أنفاسى به جرع تغادره كأمسى الناضب (١٧١)

ويقول مستخدما لفظى (مياس ودجلة) وهما نهران معروفان ، ولفظى "العفارة والمرخا" وهما ضربان من الشجر :

أرى طولا عم البرية كلها فيقصر بالحكم الالهى أو يرخا
ذكرنا الصبا ثم ترادفت حوادث أنستنا الشبيبة والشرخا
وقد ينتحى الزند الغوى بجهله فيفضل فى القدح العفارة والمرخا
قد كنت ذا لب مكين فى تقسى بحصمك والميماس دجلة والكرخا(١٧٢)

هذا ويرد لفظ الشمس ومصاحباته اللفظية لكثرة فى أشعار المشيب ليعبر عن السمو والرفعة والشموخ والثقة ، يقول المعرى :

الشيب أزهار الشباب فماله يخفى وحسن الروض بالأزهار
ود الذى هوى الحسان لو اشترى ظلماء لمته بألف نهار (١٧٣)

ومثل ذلك أيضا قوله :

أتسر شيبك عن جليسك ضلة ... والشيب ليس بعاجز عن جهره
والعمر ان لم تهده شمس الضحى ... لم يهده جنح الظلام بزهوه (١٧٤)

ومثله :

يحق لمن يهوى الحياة بكاؤه ... إذا لاح قرن الشمس أو حين تغرب
وما نفس إلا يباعد مولدا ... ويدنى المنايا للنفوس فتقرب(١٧٥)

فإحساس هؤلاء الشعراء المتشائمين بالزمن هذا الإحساس الحاد إنما ناجم من إحساسهم بالألم النفسى ، والواقع المرير ، وأن كل لحظة تمر بهم ما هى إلا ألم مبرح ، والنزعة التشاؤمية بدواخلهم تجعلهم يشعرون بتحطم آمالهم وما ينسجونه من أحلام كلما غابت الشمس أو مالت للغروب ، فكل يوم يمر يخطو بهم قدماً إلى دار الفناء . والحقيقة التى لاشك فيها أنه لا يشعر بالزمن هذا الشعور الحاد الا ذلك الذى يمضى كل لحظة تمر به سآمة وألما كأن "السائر المتعب يلتفت بعد كل خطوة يخطوها إلى المسافة التى خلفها وراءه والمسافة التى لاتزال أمامه ، ولا تخطر فكرة استقرار الوجود على الزمن إلا لمن يرى أن الحياة إن هى إلا زمن يمر لا يستتم قواه ، وجزء من الطبيعة يأخذ منها وتأخذ منه" (١٧٦) .

ومثل هذا نجده فى قول ابن هانئ ، حيث نراه يرتد إلى الوراء ، إلى أيام الصبا ، كلما تمثلت أمامه مرارة الحاضر والمستقبل . يقول :

قد أربى هذا الزمان فأوجفا ... ومحا مشيبى من شبابى أحرفا
إلا أكن بلغت بى السن المدى ... فلقد بلغت من الطريق المنصفا
فأما وقد لاح الصباح بلمتى ... وانجاب ليل عمايتى وتكشفا
فلئن هموت لأهمون تصنعا ... ولئن صبوت لأصبون تكلفا (١٧٧)

وهناك ظاهرة أخرى جديرة بالالتفات فى تراكيبهم الشعرية ، وهى كثرة شيوع الفعل "الماضى" وشيوع "الجمل الاسمية" ، وذلك أن الفعل المضارع والأمر لا يدلان على

الحركة والحياة والتجدد ، وما يمكن أن يتصل بهما من فرح بالحياة وتفاؤل بها ، أما الماضى المنتهى فقريب فى دلالته على الموت والفناء وعدم التقبل للحياة والواقع ، أو التقبل اللإرادى لهما ، وعدم الرضا عنهما :

كما أن استخدامهم للجمل الاسمية فى شعرهم يقترب من نفس الدلالة المعنوية الحزينة التى حملناها للفعل الماضى . ولننظر إلى قول ابن الرومى :

وكل مبارز بالشيب قرنا ... فمسبى - لعمرك - غير سابى
ولو شهد الشباب إذا لراحت ... وان بها - وعيشك - ضعف ما بى
فياغوثا هناك بقيد ثأرى ... إذا ما الثأر فات يدالطلاب(١٧٨)

فالشاعر هنا لم يستخدم غير الفعل الماضى ، والجمل الاسمية ، وهنا نحس اضطرابه وتأرجحه بين اليأس والأمل ، وبين ماضيه الغض المشرق ، وبين حاضره الراهن المقيت . يقول أيضاً مستخدماً الفعل الماضى والجمل الاسمية :

طربت إلى المراة فروعتنى ... طوالع شيبتين ألمتا بى
فأما شيبة فقزعت منها ... إلى المقراض حبا للتصابى
وأما شيبة فصفحت عنها ... لتشهد بالبراءة من خضابى
فأعجب بالدليل على مشيبى ... أقمت به الدليل على شبابى (١٧٩)

فلم يأت الشاعر فى الأبيات الأربع السابقة إلا بفعل مضارع وفعل أمر واحد ، وفى البيتين الآتيين لأبى العلاء نراه لا يستخدم غير الأسماء والأفعال الماضية . يقول :

طلب النساء شبابه حتى إذا ... وضحت مفارقه تأهل ينسك
وجزته فى عرس له أيامه ... بفعاله ولكل حمل ممسك (١٨٠)

ومثل ذلك نجده شائعا في شيبيات ابن الرومي كقوله :

أيهـــا الأشـــيب المســـود لمـــا ... آل انفاقـــــه إلى اكســـــاده

لاتخـــادع بلـــون خطـــرك ظبيـــا ... فهـو أقـذى للظبـــى مـــن تسـهاده

حـــد من أتبـــع الشبـــاب خضابا ... أنه ثاكل غـــدا في حـــداده (١٨١)

هوامش البحث

(١) عبد العزيز بن عبد المحسن التويجرى ، فى أثر المتنبى ، المكتب المصرى الحديث ، ص٤٧ .

(٢) د. شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، دار المعارف ، الطبعة العاشرة ، ١٩٧٨ ،

(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، الشركة اللبنانية للكتاب ، بيروت ، لبنان ، حققه وقدم له : فوزى العطوى ، ١٩٦٨م، ص٥٣٤ . وانظر أيضا : المفضليات ص١١٩ . ومعجم الشعراء لابن قتيبة ٢٢/٩، وفيهما ورد الشطر الثانى من البيت الثانى : "فليس له فى ودهن نصيب" .

(٤) المرجع السابق ، ص٣٧٨ .

(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، دار الكتاب العربى ، بيروت – لبنان ، ص٤١ ، ٤٢ .

(٦) الأمالى : لأبى على القالى ، ج١ ، ص٧٢ .

(٧) الأغانى : لأبى على القالى ، ج١ ، ص٧٢ .

(٨) الجاحظ : البيان والتبيين ، ج٣ ، ص١٩٧ ، ١٩٨ .

(٩) امرؤ القيس : (امؤ القيس بن حجر الكندى : فضيلة الشيخ ابن أبى شنب ، طبعة الشركة الوطنية ، ١٩٧٩م ، ص١٥٣ .

(١٠) خزانة الأدب : طبعة السلفية ، ٢٤٢/١ .

(١١) سورة الروم : آية ٥٤ .

(١٢) محمود سامى البارودى ، تحقيق : على الجارم ومحمد شفيق معروف ، تقديم د. جابر عصفور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالتعاون مع مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود ، البابطين ، ١٩٩٢ ، المجلد الثانى ، ص٧٥٧ .

(١٣) المرجع السابق ، المجلد الثانى ، ص٩٣ .

(١٤) المرجع السابق ، ج٣ ، ص١١٩ .

(١٥) انظر : عباس محمود العقاد : أبونواس (الحسن بن هانئ) ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة ، القاهرة ، ١٩٨٠م ، ص١٥٠ ، ١٥١ .

(١٦) عش شابا طول حياتك ، ص٧٢ .

(١٧) د. محمد عبدَ العزيز الكفراوى : عبد الله بن المعتز : حياته وانتاجه ، سلسلة فى الأدب والنقد ، القاهرة، ١٩٥٧م ، ص١٧٩ .

(١٨) عباس محمود العقاد : المجموعة الكاملة ، المجلد الخامس والعشرون (الأدب والنقد) ، دار الكتاب اللبنانى– بيروت ، ص١١٤ .

(١٩) ديوان المتنبى (أبو الطيب أحمد بن الحسين) : شرح عبد الرحمن البرقوقى ، ط دار الكتاب العربى ، بيروت، ١٩٧٩م ، ج٤ ، ص٣٥١ .

(٢٠) ديوان التنبى : ٣ /٧٦ .

(٢١) ديوان ابن خفاجة ، دار صادر – بيروت ، ص٢٤ .

(٢٢) ديوان ابن المعتز – بيروت ، ١٩٦١م ، ص٥٩ .

(٢٣) المعرى : اللزوميات ، ج١ ، فصل الراء ، ص٣٥٣ .

(٢٤) عباس محمود العقاد : أنا ، دار الكتاب العربى – بيروت – لبنان ن الطبعة الثانية ، ١٩٧١ ، ص١٣٩ .

(٢٥) د. مريد بنى حنا : باشراف د. شكرى محمد عياد ، الغدد الشخصية ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ ، ص ٤ ، ٥ .

(٢٦) المرجع السابق ، ص ٩٠ .

(٢٧) انظر : د. أحمد فؤاد الأهوانى : أسرار النفس ، مكتبة الآداب بالجماميز ، ١٩٥١م ، ص١٠٨ .

(٢٨) د. ديكتور بوجو مولتز ، عش شابا طول حياتك – كتاب الهلال ، العدد ٤٣ ، أكتوبر ١٩٥٤م ، ص١٠١.

(٢٩) انظر فى ذلك فى : د. شوقى ضيف ، دراسات فى الشعر الربى المعاصر ، دار المعارف ، الطبعة السابعة، ١٩٧٩م ، ص١٠٧ ، ١٠٨ .

(٣٠) د. طه حسين : مع التنبى ، دار المعارف – الطبعة العاشرة ، ص٥٣ .

(٣١) د. عائشة عبد الحمن : أبو العلاء المعرى ، المؤسسة المصرية العامة (أعلام العرب ٣٨) ، سنة ١٩٦٥م ، ص٣٣.

(٣٢) عباس محمود العقاد : ابن الرومى ، حياته من شعره ، نشر دار الكتاب العربى ، بيروت – لبنان – الطبعة السابعة ، ١٩٦٨م ، ص١١٤ .

(٣٣) طبقات النحويين ، للزبيدى ، مطبعة الخانجى ، ص١٢٦ .

(٣٤) ديوان ابن الرومى ٥٨٦/٢ .

(٣٥) د. زكى مبارك : النثر الفنى فى القرن الرابع ، دار الجيل – بيروت – لبنان – الجزء الثانى ، ١٩٧٥م ، ص٦٩.

(٣٦) ديوان ابن الرومى ٨٠٦/٢ .

(٣٧) ديوان ابن الرومى ١٢٠٩/٣ .

(٣٨) ديوان ابن الرومى ٩١/١ .

(٣٩) ديوان ابن الرومى ٢٠٩١/٥ .

(٤٠) ديوان ابن الرومى ٢/٥٠٥ .

(٤١) ديوان ابن الرومى ٦/٢٣٣٩ .

(٤٢) د. فيكتور بوجو مولتز : عش شابا طول حياتك ، كتاب الهلال ، العدد ٤٣ ، أكتوبر ١٩٥٤ ، ص١١١١.

(٤٣) ديوان ابن الرومى

(٤٤) ديوان البارودى ، المجلد الأول ، ص٤٧٣ .

(٤٥) ديوان عباس محمود العقاد : أنا ، ص١٤٠ – ١٤١ .

(٤٦) د. عبد الحى دياب : شاعرية العقاد فى ميزان النقد الحديث ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩م ، ص٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٤٧) عباس محمود العقاد : أنا ، ص١٥٧ .

(٤٨) أبو العلاء المعرى : اللزوميات ، ص٣٨٩ ، ج١ ، فصل الراء .

(٤٩) ديوان المتنبى ١/٣١٦ .

(٥٠) المرجع السابق ١/١٧٩ ، وفى ديوان المتنبى بشرح اليازجى ورد الشطر الثانى :

..... "قبيح ولكن أحسن الشعر فاحمه"

(٥١) محمد بن احمد بن هشام اللخمى : الفوائد المحضورة فى شرح المقصورة ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار – منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ، ص٨٥ .

(٥٢) د. فكتور بوجو مولتز : عش شابا طول حياتك ، ص٩٤ .

(٥٣) العقاد : أنا ، ص٢٢١ .

(٥٤) ديوان البارودى ، المجلد الثانى ، ص٧٣٤ .

(٥٥) الفوائد المخصورة فى شرح المقصورة ، ص٤٠٧ .

(٥٦) المعرى : اللزوميات ، فصل الراء ، ج١ ، ص٣٧٩ .

(٥٧) المعرى : اللزوميات ، فصل الباء ، ج١ ، ص١٢٩ .

(٥٨) سورة الكهف ، آية ١٣ .

(٥٩) ،

(٦٠) د. جبور عبد النور : اخوان الصفاء ، دار المعارف ، الطبعة الثالة ، ١٩٧٠ ، ص٦٠ ، ٦١ .

(٦١) المعرى : اللزوميات ، ج١ ، فصل الحاء ، ص٢٢٤ .

(٦٢) المرجع السابق ، ج٢ ، فصل اللام ، ص٢٦٢ .

(٦٣) المعرى : اللزوميات ، ج١ ، فصل الراء ، ص٤١٩ .

(٦٤) المرجع السابق ، ج١ ، فصل الحاء ، ص٢٢٤ .

(٦٥) سورة يوسف ، آية ٢٢ .

(٦٦) مقصورة ابن دريد ص٤٠٧ .

(٦٧) العقاد : أنا ، ص٣٩٤ .

(٦٨) المرجع السابق ، ص٣٢٥ .

(٦٩) اللزوميات ، ج١ ، فصل الراء ، ص٣٥٣ .

(٧٠) شرح المقصورة ، ص٤٠٧ .

(٧١) عباس العقاد : أنا ، ص٢٢٧ .

(٧٢) الرسائل : ج٤ ، ص١١٩ ، وانظر أيضا : د. جبور عبد النور : اخوان الصفاء ، ص١٣ .

(٧٣) اللزوميات ، ج٢ ، فصل الزاى ، ص٥٩٠ .

(٧٤) انظر المجموعة الكاملة للعقاد – المجلد ٢٤ ، دار الكتاب اللبنانى – بيروت – الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣م، ص١٩٠ ، ١٩١ .

(٧٥) اللزوميات ، ج٢ ، فصل السين ، ص٣٣ .

(٧٦) اخوان الصفاء ، ص٦٩ ، ٧٠ .

(٧٧) انظر : العقاد : أنا ، ص٢٣٣ .

(٧٨) المرجع السابق ، ص٢٣٤ .

(٧٩) ديوان ابن الرومى ، ج٢ ، ص٧٠٦ .

(٨٠) ديوان ابن الرومى ، ١٧٤/١ .

(٨١) مقصورة ابن دريد ، ص٢٨ ، ٢٩ .

(٨٢) د. حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى ، مطبعة حجازى بالقاهرة ، ط١ ، ١٩٣٥م ، الأول، ص٣٠٤ .

(٨٣) عامر العقاد : لمحات من حياة العقاد ، مؤسسة دار الشعب ، ط٢ ، ص٢٤٩ .

(٨٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٨٥) اللزوميات ج١ فصل التاء ، ص١٤٣ .

(٨٦) انظر ذلك فى : عباس العقاد : أنا ، ص٢٣٧ – ٢٣٩ .

(٨٧) اللزوميات ، فصل الراء ، ص٣٧٠ ، ج١ .

(٨٨) انظر : عباس العقاد : أنا ، ص٢٣٧ .

(٨٩) المجموعة الكاملة لمؤلفات عباس محمود العقاد (المجلد الرابع والعشرون) فى الأدب والنقد ، دار الكتاب اللبنانى ، الطبعة الأولى ، ص١٩٨٣م ، ص٤٩٢ ، ٤٩٣ .

(٩٠) مجلة الراسلة ، العدد ٨٢٩ ، مايو ١٩٤٩م ، السنة السابعة عشرة ، ص٨٨٥ .

(٩١) مجلة الرسالة ، العدد ٨٣٤ ، ٢٧ يونيو ١٩٤٩م ، السنة السابعة عشرة ، ص١٠٢٩ .

(٩٢) د. حسن ابراهيم حسن : العصر العباسى الثانى ، الجزء الثانى ، مطبعة الاعتماد ، ص١٠٩ .

(٩٣) د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ، مطبعة حجازى بالقاهرة ، ط١ ، ١٩٣٥م ، ج١ الباب الثانى ، ص١٦٠ .

(٩٤) انظر : د. محمود رجب : الاغتراب سيرة ومصطلح ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦م ، ص١٣٤.

(٩٥) عباس محمود العقاد : ابن الرومى حياته من شعره ، مرجع سابق ، ص١٣ .

(٩٦) ديوان ابن الرومى (أبو الحسن على بن العباس بن جريج – تحقيق د. حسين نصار ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٦م ، ج٣ ، ص١١١٧ .

(٩٧) ديوان ابن الرومى ٢٠٦٥/٥ .

(٩٨) المرجع السابق ٩١/٣ .

(٩٩) المرجع السابق ٩١/٣ ، وانظر د. مصطفى أبو العلا : مرجع سابق ، ص٥٨ .

(١٠٠) المرجع السابق ، ٩١/٣ .

(١٠١) د. صالح حسن اليظى ن أثر التشاؤم فى شعر ابن الرومى (رؤية نقدية تحليلية) ، مركز الاسكندرية للجمع والتصوير والتجارة ، ١٩٨٧م ، ص٢٤١ .

(102) Gouliane, Hagel au la philosophie de la drise, Op. cit., p. 10 , p. 12 .

(١٠٣) د. حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٤٨ .

(١٠٤) ديوان ابن هانئ ، ديوان صادر بيروت ، ص٩٠ .

(١٠٥) ديوان أبى تمام "حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس" ، شرح الخطيب التبريزى ، تحقيق محمد عبده عزام، المجلد الثالث ، ١٩٧٠م ، دار المعارف ، ص

(١٠٦) ديوان ابن الرومى ١٩٨/١ .

(١٠٧) المتنبى (أبو الطيب أحمد بن الحسين) ، ديوان المتنبى ، شرح عبد الرحمن البرقوقى ، ط دار الكتاب العربى ، بيروت (١٩٧٩) الجزء الرابع ، ص١٩٣ .

(١٠٨) ديوان التنبى ٧٦/٣ .

(١٠٩) د. طه حسين ، مع المتنبى ، ص٧٤ .

(١١٠) المرجع السابق ، ص٧٣ .

(١١١) المرجع السابق ، ٤/١٩٤ .

(١١٢) المتنبى ، أبو الطيب أحمد بن الحسين ، "ديوان أبى الطيب المتنبى" ، بشرح أبى البقاء العكبرى المسمى بالتبيان فى الديوان "ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا ، وابراهيم الابيارى ، وعبد الحفيظ شلبى ، مكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ، الطبعة الأخيرة ، سنة ١٩٧١م .

(١١٣) د. مصطفى أبو العلا ، شعر المتنبى ، دراسة فنية ، مكتبة نهضة الشرق ، ٩٧٦م ، ص٥٧ .

(١١٤) د. شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، دار المعارف ، الطبعة العاشرة ، ١٩٧٨م ، ص٣٠٦ .

(١١٥) ديوان المتنبى .

(١١٦) د. شوقى ضيف ، دراسات فى الشعر العربى المعاصر ، دار المعارف ، الطبعة السابعة ، ١٩٧٩م ، ١٤٢.

(١١٧) المجموعة الكاملة لمؤلفات عباس محمود العقاد ، المجلد الخامس والعشرون ، دار الكتاب اللبنانى – بيروت، ص٢٢٠ .

(١١٨) ديوان المتنبى ، ج٤/٣٥١ .

(١١٩) أنور الجندى ، زكى مبارك دراسة تحليلة لحياته وأدبه ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٥٢م ، ص١٧٤ .

(١٢٠) اللزوميات : ج١ ، فصل الدال ، ص١٤٩ .

(١٢١) المرجع السابق ، ج١ ، فصل الراء ، ص٤٢٦ .

(١٢٢) نفس المرجع ، ج١ ، فصل السين ، ص٣٦ .

(١٢٣) لاسل آبر كرمبى ، قواعد النقد الأدبى ، نقله الى العربية د. محمد عوض محمد ، ط لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٣٦م ، ص١٥٢ ، ١٥٣ .

وانظر ايضا : المجموعة الكاملة للعقاد ، المجلد ٢٤ ، ص١٨١ .

(١٢٤) اللزوميات – فصل الدال ، ج١ ، ص٢٣١ .

(١٢٥) المرجع السابق ، ج١ ، فصل الدال ص٢٣٩ .

(١٢٦) المرجع السابق ، ج١ ، فصل الباء ، ص١٠٦ ، د. عائشة عبد الرحمن ، مرجع سابق .

(١٢٧) المرجع السابق ، المجلد الأول ، ص٥١٣ .

(١٢٨) د. شوقى ضيف ، البارودى رائد الشعر الحديث ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨١م ، ص٦٠ .

(١٢٩) ديوان البارودى ، المجلد الأول ، ص١٠٥ .

(١٣٠) د. شوقى ضيف ، البارودى رائد الشعر الحديث ، ص٥٩ .

(١٣١) ديوان البارودى ، المجلد الثانى ، ص٧٥٦ ، ٧٥٧ .

(١٣٢) المرجع السابق ، المجلد الأول ، ص١٠٥ .

(١٣٣) المرجع السابق ، المجلد الثانى ، ص٩٣ .

(١٣٤) عباس محمود العقاد ، المجموعة الكاملة : (الأدب والنقد) ، المجلد الرابع والعشرون ، ص٤٠٥ .

(١٣٥) حامد عبده هلال : السخرية فى دب المازنى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨١ ، ص٢٥٨ .

(١٣٦) عائشة عبد الرحمن : أبو العلاء المعرى ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (أعلام العرب ٣٨) ، ص١٦٨ .

(١٣٧) المرجع السابق ، ص١٨٥ .

(١٣٨) أبو العلاء المعرى : أحمد بن عبد الله بن سليمان ، شرح سقط الزند ، تحقيق مصطفى السقا ، وعبد السلام هارون وآخرين ، ط الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ص٨٧ .

(١٣٩) د. عائشة عبد الرحمن ، أبو العلاء المعرى (بتصرف) ، ص٤٨ .

(١٤٠) د. مصطفى محمد أبو العلاء : شعر المتنبى دراسة فنية ، مكتبة نهضة الشرق ، ١٩٧٦م ، ص٩٨ .

(١٤١) ديوان المتنبى ، ج٣ / ٣٣٤ .

(١٤٢) أبو العلا المعرى ، اللزوميات ، ج٢ ، فصل الصاد ، ص٦٦ .

(١٤٣) ديوان المتنبى ، ٣١٦/١ .

(١٤٤) المرجع السابق ، ٣٥١/٤ .

(١٤٥) د. شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، الطبعة العاشرة ، دار المعارف ، ص٣٠٩ .

(١٤٦) ديوان البارودى ، ج٢ ، ص٧٤٢ .

(١٤٧) اللزوميات ، ج٢ ، فصل الراء ، ص٣٢٢ .

(١٤٨) اللزوميات ، ج١ ، فصل الباء ، ص٩٨ .

(١٤٩) اللزوميات ج١ ، فصل الخاء ، ص٢٢٥ .

(١٥٠) ديوان ابن الرومى ، ج٢ ، ص٥٨٦ .

(١٥١) المرجع السابق ، ج٣ ، ص١٩٩ .

(١٥٢) المرجع السابق ، ج٣ ، ص١٠٨ .

(١٥٣) المرجع السابق ، ج٣ ، ص١٠٨ .

(١٥٤) الراغب الأصفهانى : معجم مفردات ألفاظ القرآن ، مادة ذهر ، تحقيق : نديم مرعشلى ، مطبعة التقدم العربى، بيروت ، ١٩٧٢م .

(١٥٥) اللزوميات ، ج٢ ، فصل اللام ، ص١٩١ .

(١٥٦) ديوان ابن الرومى ، ج١ ، ص٥٨٦ .

(١٥٧) ديوان البارودى ، ج٢ ، ص٧٥٦ – ٧٥٧ .

(١٥٨) د. شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، دار المعارف ، ط٧ ، ١٩٦٩م ، ص٣٤٥ .

(١٥٩) اللزوميات ، ج١ ، فصل الباء ، ص١١٧ .

(١٦٠) ديوان ابن هانئ ، دار صادر – بيروت ، ص٩٠ .

(١٦١) المرجع السابق ، ص٥٢ .

(١٦٢) ديوان ابن الرومى ، ج٢ ، ص٥٨٤ .

(١٦٣) اللزوميات : ج١ ، فصل الهمزة ، ص٤٠ .

(١٦٤) اللزوميات : ج١ ، فصل الباء ، ص١١٧ .

(١٦٥) اللزوميات ، ج١ ، فصل الباء ، ص٩٨ .

(١٦٦) ديوان ابن الرومى ، ج٣ ، ص١٢٠٩ .

(١٦٧) لسان العرب : مادة "عيس" .

(١٦٨) اللزوميات ، ج٢ ، فصل الراء ، ص٣١٢ .

(١٦٩) اللزوميات ، ج٢ ، فصل الدال ، ص٢٨٠ .

(١٧٠) اللزوميات ، ج٢ ، فصل السين ، ص٣٠٦ .

(١٧١) اللزوميات ، ج١ ، فصل الدال ، ص٢٨٠ .

(١٧٢) اللزوميات ، ج١ ، فصل الحاء ، ص٢٢٥ .

(١٧٣) اللزوميات ، ج١ فصل الراء ، ص٤١٣ .

(١٧٤) اللزوميات ، ج١ ، فصل الراء ، ص٤٠٩ .

(١٧٥) اللزوميات ، ج١ ، فصل الباء ، ص٩٨ .

(١٧٦) المجموعة الكاملة للعقاد ، المجلد ٢٤ ، ص١٨٤ .

(١٧٧) ديوان ابن هانئ : دار صادر ، بيروت ، ص١٨٥ .

(١٧٨) ديوان ابن الرومى ،

(١٧٩) المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٥١ .

(١٨٠) اللزوميات : ج٢ ، فصل الكاف ، ص١٥٣ .

(١٨١) ديوان ابن الرومى ، ج٢ ، ص٧٠٨ .

أهم المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم

٢- ابن أبى شنب ، ديوان امرئ القيس ، الشركة الوطنية ، ١٩٧٩م .

٣- الأغانى لأبى فرج الأصفهانى ، ج٨ .

٤- الأمالى ، لأبى على القالى .

٥- الجاحظ : البخلاء ، دار صادر بيروت ، ١٩٦٨م .

٦- الجاحظ : البيان والتبيين ، حققه وقدم له فوزى العطوى ، بيروت - لبنان ، ١٩٦٨م.

٧- أحمد الشايب : أصول النقد ، مكتبة النهضة ، القاهرة : ١٩٧٣م .

٨- د. أحمد فؤاد الأهوانى : أسرار النفس ، مكتبة الآداب بالجماميز ، ١٩٥١م .

٩- أنور الجندى : زكى مبارك ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٥٢م .

١٠- د. جبور عبد النور : إخوان الصفا ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٠م .

١١- حامد عبده هلال : السخرية فى أدب المازنى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م .

١٢- د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى ، مطبعة الاعتماد، ج١ ، ج٢ .

١٣- ديوان ابن خفاجة : دار صادر ، بيروت .

١٤- ديوان ابن الرومى ، تحقيق د. حسين نصار ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٣م ، ج١ ، ٣ .

١٥- ديوان ابن المعتز ، ج١ ، بيروت ، ١٩٦١م ، ج١ .

١٦- ديوان ابن هانئ : صادر ، بيروت .

١٧- ديوان البارودى : تحقيق على الجارم وزميله ، تقديم د. جابر عصفور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، المجلد الثانى ، ١٩٩٢م.

١٨- ديوان عباس محمود العقاد ، القاهرة ، ١٩٥٤م .

١٩- ديوان المتنبى ، شرح عبد الرحمن البرقوقى ، طبع دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٧٩م ، ج٤ .

٢٠- الراغب الأصفهانى : معجم مفردات القرآن الكريم ، تحقيق نديم مرغسلى ، مطبعة التقدم العربى ، بيروت ، ١٩٧٢م .

٢١- د. زكى مبارك : النثر الفنى فى القرن الرابع ، دار الجيل ، بيروت سنة ١٩٧٥م ، ج٢ .

٢٢- شرح سقط الزند لأبى العلاء المعرى ، تحقيق مصطفى السقا وعبد السلام هارون وآخرين ، طبع الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٤ .

٢٣- د. شوقى ضيف : البارودى رائد الشعر الحديث ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨١م .

٢٤- د. شوقى ضيف : دراسات فى الشعر العربى المعاصر ، دار المعارف ، الطبعة السابعة ١٩٧٩م .

٢٥- د. صالح حسن اليظى : أثر التشاؤم فى شعر ابن الرومى ، مركز الاسكندرية للجمع والتصوير والتجارة سنة ١٩٨٧م .

٢٦- طبقات النحويين للزبيدى ، مطبعة الخانجى ، كتاب الهلال ، العدد ٤٣ ، أكتوبر سنة ١٩٥٤م .

٢٧- د. طه حسين : مع المتنبى ، دار المعارف ، الطبعة العاشرة .

٢٨- د. عائشة عبد الرحمن : أبو العلاء المعرى (أعلام العرب ٣٨) ، المؤسسة المصرية العامة ، ١٩٦٥م .

٢٩- عامر العقاد : لمحات من حياة العقاد ، مؤسسة دار الشعب ، الطبعة الثانية .

٣٠- عباس محمود العقاد : ابن الرومى ، حياته من شعره ، طبع بيروت - لبنان ، نشر دار الكتاب العربى ، الطبعة السابعة ، ١٩٦٨م .

٣١- عباس محمود العقاد : "أنا" ، دار الكتاب العربى ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٧١م .

٣٢- د. عبد الحى دياب : شاعرية العقاد فى ميزان النقد الحديث ، دار النهضة العربية ؟، القاهرة ، ١٩٦٩م .

٣٣- عبد العزيز التويجرى : فى أثر المتنبى ، المكتب المصرى الحديث .

٣٤- د. فريد نبى حنا : الغدد والشخصية ، إشراف د. شكرى محمد عياد ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٧م .

٣٥- الفوائد المحصورة فى شرح المقصورة ، لمحمد بن أحمد بن هشام اللخمى ، منشورات دار مكتبة الحياة ، الطبعة الأولى ، بيروت - لبنان ، ١٩٨٠م .

٣٦- د. فيكتور بوجو موليز ، كتاب الهلال ، العدد ٤٣ ، أكتوبر سنة ١٩٥٤م .

٣٧- لاسل آبركرمبى : قواعد النقد الأدبى ، نقله إلى العربية د. محمد عوض محمد ، طبعة لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٣٦م .

٣٨- المجموعة الكاملة لعباس محمود العقاد ، دار الكتاب اللبنانى - بيروت ، المجلد ٢٤ ، ٢٥ .

٣٩- د. محمد عبد العزيز الكفراوى : عبد الله بن المعتز ، حياته وإنتاجه ، سلسلة فى الأدب والنقد ، القاهرة ، ١٩٧٥م .

٤٠- محمود رجب : الاغتراب سيرة ومصطلح ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦م .

٤١- د. مصطفى أبو العلا : شعر المتنبى ، دراسة فنية ، مكتبة نهضة الشرق ، ١٩٧٦م .

الدوريات :

٤٢- مجلة الرسالة ، العدد ٨٢٩ - مايو سنة ١٩٤٩م ، السنة السابعة عشرة .

٤٣- مجلة الرسالة ، العدد ٨٣٤ - يونيو سنة ١٩٤٩م ، السنة السابعة عشرة .